الابْتِكَارُ اللُّغَوِيُّ في الخِطَابِ القُرْآنِي عِنْدَ الطَّاهِرِ بْنِ عَاشُور

دِرَاسَةٌ في المَفْهُومِ وَالمَرْجِعِيَّاتِ

د. وائل عبد الأمير خليل مراد الحربيّ

كلية الآداب/ جامعة بابل

وُلِد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في الزيتونة بتونس سنة (١٨٧٩م)، في أسرة علمية عريقة تمتد أصولها إلى بلاد الأندلس[١]. وحفظ الطاهر القرآن الكريم، وتعلم اللغة الفرنسية، والتحق بجامع الزيتونة سنة (١٨٩٢م) وهو في الرابعة عشرة من عمره، فدرس العلوم التي تدرس في الزيتونة ونبغ فيها، وأظهر همة عالية في التحصيل، وساعده على ذلك ذكاؤه النادر والبيئة العلمية الدينية التي نشأ فيها. تخرج الطاهر في الزيتونة عام (١٨٩٦م)، والتحق بسلك التدريس في هذا الجامع العريق، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى عين مدرسًا من الطبقة الأولى بعد اجتياز اختبارها سنة (١٩٠٣م)[٢]. وقد اختير ابن عاشور في لجنة إصلاح التعليم الأولى بالزيتونة في (١٩١٠م)، وكذلك في لجنة الإصلاح الثانية (١٩٢٤م)، ثم اختير شيخا لجامع الزيتونة في (١٩٣٢م)، كما كان رئيس المفتين المالكيين. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة[٣]؛ من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية) و(أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) وتفسير (التحرير والتنوير)، و(الوقف وآثاره في الإسلام) و(أصول الإنشاء والخطابة) و(موجز البلاغة)، ومما عني بتحقيقه ونشره (ديوان بشار بن برد) في أربعة أجزاء. كما كان له إسهامه العلمي والثقافي في المجلات[٤].

أحدثت آراؤه نهضة في علوم الشريعة والتفسير والتربية والتعليم والإصلاح، وكان لها أثرها البالغ ؛ فقد كان الطاهر بن عاشور عالما مصلحا مجددا، لا يستطيع الباحث في شخصيته وعلمه أن يقف على جانب واحد فقط، إلا أن القضية الجامعة في حياته وعلمه ومؤلفاته هي التجديد والإصلاح من خلال الإسلام وليس بعيدا عنه، ومن ثم جاءت آراؤه وكتاباته ثورة على التقليد والجمود وثورة على التسيب والضياع الفكري والحضاري[٥].

يعد الطاهر بن عاشور من كبار مفسري القرآن الكريم في العصر الحديث، ولقد احتوى تفسيره "التحرير والتنوير" على خلاصة آرائه الاجتهادية والتجديدية؛ إذ استمر في هذا التفسير ما يقرب من خمسين عاما، وأشار في بدايته إلى أن تفسيره احتوى أحسن ما في التفاسير، وأحسن مما فيها، قال: ((فَفِيهِ أَحْسَنُ مَا فِي التَّفَاسِيرِ، وَفِيهِ أَحْسَنُ مِمَّا فِي التَّفَاسِيرِ))[٦]. وتفسير التحرير والتنوير في حقيقته تفسير بلاغي، اهتم فيه بدقائق البلاغة في كل آية من آياته، وأورد فيه بعض الحقائق العلمية ولكن باعتدال ودون توسع أو إغراق في تفريعاتها ومسائلها[٧].

وقد توفي الطاهر بن عاشور في (١٢ أغسطس ١٩٧٣م) بعد حياة حافلة بالعطاء العلمي والإصلاح الفكري والتربوي والتجديد[٨].

مفهوم الابتكار عند الشيخ الطاهر: خصص الطاهر بن عاشور في الجهة الثالثة من الجهات التي يرجع إعجاز القرآن إليها جزءا من حديثه لما اصطلح عليه بـ (مبتكرات القرآن)، وقد ذكر فيه مجموعةً من تلك المبتكرات اللغوية القرآنية،

١ ينظر: المعجم الجامع في تراجم المعاصرين: ١٢٩.

٢ ينظر: نفسه: ١٢٩.

٣ ينظر: الأعلام ٦/ ١٧٤و الوفيات والأحداث: ٢٠٩.

٤ ينظر: الأعلام ٦/ ١٧٤. الوفيات والأحداث: ٢٠٩.

٥ ينظر: المعجم الجامع في تراجم المعاصرين: ١٣٠.

٦ ينظر: التحرير والتنوير ١/ ٨.

٧ ينظر: المعجم الجامع في تراجم المعاصرين: ١٣٠.

٨ المعجم الجامع في تراجم المعاصرين: ١٣٠.

وفيه تحدَّث عن بعض الأساليب المبتكرة الرئيسة مما تنطوي تحته صور جزئية وأمثلة فرعية يمكن لمن أراد ان يلتمس نظائرها في القرآن الكريم الرجوع إليها، وقد كشف الشيخ الطاهر عن عدد من تلك الأساليب–أو كما عبر عنها هو بالطرائق المبتكرة في التعبير– في تفسيره، وسيقف البحث هنا على مفهوم الابتكار والمبتكر عند الطاهر بن عاشور؛ من اجل تحديد الرؤية التي سار بهديها في معالجته للموضوع، لغرض معرفة المعيار الذي في ضوئه جعل من ذلك اللفظ أو التركيب مبتكرا، ثم سيعرض البحث لأهم الأساليب والألفاظ التي وصفها الطاهر بن عاشور بالابتكار اللغويّ. وقبل البدء بما قررناه لابد من الإشارة إلى أنَّ الدافعَ الذي وجَّه الشيخَ الطاهرَ إلى هذه الفكرة هو هاجسُ إضافةِ شيءٍ جديدٍ في ميدان البحث في الإعجاز القرآني عامة واللغوي منه خاصة، وهذا ما يمكن أنْ نلمسَه في قوله عن المقدمة التي كتبها عن الإعجاز: ((وَلَعَلَّكَ تَجِدُ فِي هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ أُصُولًا وَنُكَتًا أَغْفَلَهَا مَنْ تَقَدَّمُوا مِمَّنْ تَكَلَّمُوا فِي إِعْجَازِ القرآن مِثْلَ الْبَاقِلَّانِيِّ، وَالرُّمَّانِيِّ، وَعَبْدِ الْقَاهِرِ، وَالْخَطَّابِيِّ، وَعِيَاضٍ، وَالسَّكَّاكِيِّ، فَكُونُوا مِنْهَا بِالْمِرْصَادِ، وَافْلُوا عَنْهَا كَمَا يُفْلَى عَنِ النَّارِ الرَّمَادُ))[١]. فهو ينطلق في عمله في تلك المقدمة من البحث عما أغفله المتقدمون ممن تكلموا في الإعجاز القرآني، كما قال في موضع آخر: ((غَيْرَ أَنِّي ذَاكِرٌ هُنَا أُصُولًا لِنَوَاحِي إِعْجَازِهِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ وَبِخَاصَّةٍ مَا لَمْ يَذْكُرْهُ الْأَئِمَّةُ أَوْ أَجْمَلُوا فِي ذِكْرِهِ))[٢]. واهتمامه هذا بالإعجاز يعود إلى إيمانه بأنَّ القرآنَ الكريمَ هو المعجزةُ الكبرى للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلَّم) وأنها مُعجزةٌ باقيةٌ خالدة[٣]. فلا بدَّ لها من أنْ تتميز من غيرها، ومرجع هذا التميّز وسرّ هذا الإعجاز هو نظم القرآن على نحْوٍ يفوقُ كلَّ النصوص السابقة ويُعْجِزُ كلَّ مَن أرادَ أنْ يدانيَه مِن أصحاب النصوص اللاحقة. وقد كَشَفَ عن أهمية خُصوصية النصّ القرآنيّ في كونِه مُعجزاً بقوله: ((وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا شَكَّ فِي أَنَّ خُصُوصِيَّاتِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ وَدَقَائِقَهُ مُرَادَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كَوْنِ القرآن مُعْجِزًا وَمَلْحُوظَةً لِلْمُتَحَدَّيْنَ بِهِ عَلَى مِقْدَارِ مَا يَبْلُغُ إِلَيْهِ بَيَانُ الْمُبِينِ))[٤]. إنَّ تفكير الشيخ الطاهر في خصوصيات النصّ القرآني المؤدية إلى اتصافه بصفة الإعجاز قاده إلى البحث في ما وسمه بـ: (الجهة الثانية من جهات الإعجاز) المتمثلة بما أبدعه القرآن الكريم من أساليب تعبيرية جديدة ليس للعرب، في شعرهم أو نثرهم، تَصَرُّفٌ بها؛ قال: ((وَأَمَّا الْجِهَةُ الثَّانِيَةُ: وَهِيَ مَا أَبْدَعَهُ القرآن مِنْ أَفَانِينِ التَّصَرُّفِ فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ وَهَذِهِ جِهَةٌ مَغْفُولَةٌ مِنْ عِلْمِ الْبَلَاغَةِ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَدَبَ الْعَرَبِ نَوْعَانِ شِعْرٌ وَنَثْرٌ، وَالنَّثْرُ خَطَابَةٌ وَأَسْجَاعُ كُهَّانٍ، وَأَصْحَابُ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَإِنْ تَنَافَسُوا فِي ابْتِكَارِ الْمَعَانِي وَتَفَاوَتُوا فِي تَرَاكِيبِ أَدَائِهَا فِي الشِّعْرِ فَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأُسْلُوبِ قَدِ الْتَزَمُوا فِي أُسْلُوبَيِ الشِّعْرِ وَالْخَطَابَةِ طَرِيقَةً وَاحِدَةً تَشَابَهَتْ فُنُونُهَا فَكَادُوا لَا يَعْدُونَ مَا أَلِفُوهُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى إِنَّكَ لَتَجِدُ الشَّاعِرَ يَحْذُو حَذْوَ الشَّاعِرِ فِي فَوَاتِحِ الْقَصَائِدِ وَفِي كَثِيرٍ مِنْ تَرَاكِيبِهَا،...، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي خُطَبِهِمْ تَكَادُ تَكُونُ لَهْجَةً وَاحِدَةً وَأُسْلُوبًا وَاحِدًا))[٥]. وفي خضمِّ بحثه عن الاختلاف والتمايز بين القرآن الكريم وكلام العرب: شعره ونثره انبثقتْ عنده– في أغلبِ الظن– فكرةُ الابتكارِ القرآنيّ، ومن ثمَّ فهو يقرر أنَّ القرآنَ الكريمَ جاء على أسلوبٍ لغويٍّ لا يُعَدُّ من الشعر، وهو قريبٌ من النثر ولكنه مُتَميزٌ منه بما ابتكره من أساليب، قال: ((فَلَمَّا جَاءَ القرآن وَلَمْ يَكُنْ شِعْرًا وَلَا سَجْعَ كُهَّانٍ، وَكَانَ مِنْ أُسْلُوبِ النَّثْرِ أَقْرَبَ إِلَى الْخَطَابَةِ، ابْتَكَرَ لِلْقَوْلِ أَسَالِيبَ كَثِيرَةً بَعْضَهَا تَتَنَوَّعُ بِتَنَوُّعِ الْمَقَاصِدِ، وَمَقَاصِدُهَا بِتَنَوُّعِ أُسْلُوبِ الْإِنْشَاءِ، فِيهَا أَفَانِينُ كَثِيرَةٌ فَيَجِدُ فِيهِ الْمُطَّلِعُ عَلَى لِسَانِ الْعَرَبِ بُغْيَتَهُ وَرَغْبَتَهُ))[٦]. وهكذا أخذتْ فكرةُ الابتكارِ اللغويِّ تترسخ في فكرِ الشيخ الطاهر بن عاشور؛ فأخذ يَرسمُ ملامحَها في القرآن الكريم شيئًا فشيئًا، مُبينًا مرةً أخرى أنَّه كلامٌ منثورٌ فاقَ ما جاء من النثر على ألْسِنة الفصحاء والبلغاء وأنَّ لمجيئه منثورًا غاية إعجازية مُتمثلة في أنَّه جاء بشكل تعبيريٍّ مألوف لمن أُرسِلَ إليهم، قال: ((فَجَاءَ القرآن كَلَامًا مَنْثُورًا وَلَكِنَّهُ فَاقَ فِي

١ التحرير والتنوير ١/ ١٠١-١٠٢.
٢ نفسه: ١/ ١٠٦.
٣ ينظر: نفسه: ١/ ١٠٢.
٤ نفسه: ١/ ١٠٨.
٥ التحرير والتنوير ١/ ١١٣-١١٤.
٦ نفسه: ١/ ١١٤.

فَصَاحَتِهِ وَسَلَاسَتِهِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ وَتَوَافُقِ كَلِمَاتِهِ وَتَرَاكِيبِهِ فِي السَّلَامَةِ مِنْ أَقَلِّ تَنَافُرٍ وَتَعَثُّرٍ عَلَى الْأَلْسِنَةِ. فَكَانَ كَوْنُهُ مِنَ النَّثْرِ دَاخِلًا فِي إِعْجَازِهِ))[١]. وعلى الرغم مِن أنَّ القرآنَ الكريمَ جاء منثورًا –كما هو شأنُ كلامهم – إلّا أنَّه بَقِيَ مُعجزًا لهم في الوقت نفسه؛ لأنه ابتكر أساليب لم يسبق لهم أنْ عرفوها، ولم يكتفِ الطاهرُ بهذا، بل راحَ يُعلِّلُ سببَ هذا التنويعِ في استعمالِ القرآنِ الكريمِ أساليبَ عرفتها أَلْسِنةُ فصحائهم مرةً، واستعمالِ أساليبَ أُخر لم يعرفوها مرةً أخرى، قال: ((وَقَدِ اشْتَمَلَ القرآن عَلَى أَنْوَاعِ أَسَالِيبِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ، وَابْتَكَرَ أَسَالِيبَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا. وَإِنَّ لِذَلِكَ التَّنْوِيعِ حِكْمَتَيْنِ دَاخِلَتَيْنِ فِي الإعجاز: أَولا هما ظُهُورُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِذْ قَدْ تَعَارَفَ الْأُدَبَاءُ فِي كُلِّ عَصْرٍ أَنْ يَظْهَرَ نُبُوغُ نَوَابِغِهِمْ عَلَى أَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ كُلٌّ يُجِيدُ أُسْلُوبًا أَوْ أُسْلُوبَيْنِ. الثَّانِيَة أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ زِيَادَة التحدي المتحدّين بِهِ بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ إِنَّ هَذَا الْأُسْلُوبَ لَمْ تَسْبِقْ لِي مُعَالَجَتُهُ وَلَوْ جَاءَنَا بِأُسْلُوبٍ آخَرَ لَعَارَضْتُهُ))[٢]. ومما سبق نرى أن فكرة الابتكار اللغويِّ في الخطابِ القرآنيِّ ارتبطت بالبحث في الإعجاز وإليه تعود ومنه انبثقتْ وتبلورتْ، فهي وجْهٌ من وجوهِه ومَلمَحٌ من مَلامحِه تؤكِّدُ حقيقةَ أنَّ القرآنَ مُعجزٌ وأنَّ هذا الإعجازَ مُستمِرٌ على تعاقب السنين، ومن ثَمَّ، فهو ليس من نتاج البشر؛ لأنَّه جاء بأساليبَ جديدةٍ ومبتكرةٍ، ليست مِن وسْعِ إنسانٍ مَهْمَا بلَغَتْ فَصَاحَتُهُ وعَلا كَعْبُهُ في البَلاغة. فهو يَرَى أنَّ النصَّ القرآنيَّ مُتَفَرِّدٌ بجِدَّةِ أُسْلُوبِه وتعدُّدِ دلالاتِه ووَفْرَتِها وأنَّ هذا أمرٌ لم تَألَفْهُ العَرَبُ في كلامِها، ولعلَّ مِن أوضحِ الإشاراتِ إلى ذلك ما نجده في قوله: ((إِنَّ نَظْمَ القرآن مَبْنِيٌّ عَلَى وَفْرَةِ الْإِفَادَةِ وَتَعَدُّدِ الدَّلَالَةِ، فَجُمَلُ القرآن لَهَا دَلَالَتُهَا الْوَضْعِيَّةُ التَّرْكِيبِيَّةُ الَّتِي يُشَارِكُهَا فِيهَا الْكَلَامُ الْعَرَبِيُّ كُلُّهُ، وَلَهَا دَلَالَتُهَا الْبَلَاغِيَّةُ الَّتِي يُشَارِكُهَا فِي مُجْمَلِهَا كَلَامُ الْبُلَغَاءِ وَلَا يَصِلُ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِهِمْ إِلَى مَبْلَغِ بَلَاغَتِهَا. وَلَهَا دَلَالَتُهَا الْمَطْوِيَّةُ وَهِيَ دَلَالَةُ مَا يُذْكَرُ عَلَى مَا يُقَدَّرُ اعْتِمَادًا عَلَى الْقَرِينَةِ، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ قَلِيلَةٌ فِي كَلَامِ الْبُلَغَاءِ وَكَثُرَتْ فِي القرآن مِثْلَ تَقْدِيرِ الْقَوْلِ وَتَقْدِيرِ الْمَوْصُوفِ وَتَقْدِيرِ الصِّفَةِ،...، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ لَا تَتَأَتَّى فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لِقِصَرِ أَغْرَاضِهِ فِي قَصَائِدِهِمْ وَخُطَبِهِمْ بِخِلَافِ القرآن، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مِنْ قَبِيلِ التَّذْكِيرِ وَالتِّلَاوَةِ سَمَحَتْ أَغْرَاضُهُ بِالْإِطَالَةِ، وَبِتِلْكَ الْإِطَالَةِ تَأَتَّى تَعَدُّدُ مَوَاقِعِ الْجُمَلِ وَالْأَغْرَاضِ))[٣]. فكلامُه في هذا النصِّ يكشفُ عن توجّهه إلى الموازنة بين النصِّ القرآنيِّ وكلامِ العربِ للوقوفِ على خصائص تفرّدِه وإعجازِه، فهو يرى أنَّ النصَّ القرآنيَّ على الرغم من اشتراكه في أشياءَ مع كلام العرب إلا أنّه في الوقت نفسه مختلف في وفرة دلالاته وقوة بلاغتِه التي لا يصل إليها كلامُ العربِ على الرغم مِن فَصاحَتِه، وكَثْرَةِ حذوفه مما يكسبه عمقا في الدلالة وسعة فيها، وان هذا إنما جاء لما أراده الله سبحانه وتعالى لكتابه من ان يكون كتابا للتذكير والتلاوة. إنَّ فكرةَ استمرارِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ، على الرغم من تقادُمِ العصور التي أُنزِل فيها، فكرةٌ تَبَنَّاهَا بعضُ العلماء من السابقين، كما في نَقْل الزركشيِّ عن حازم القرطاجني: ((وقال حازم في منهاج البلغاء: وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه في جميع أنحائها في جميعه استمرارا لا يوجد له فترة، ولا يقدِرُ عليه أحد من البشر. وكلام العرب ومَنْ تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعترض الفترات الإنسانية، فينقطع طيب الكلام ورونقهُ، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه))[٤].

يستند مفهومُ الابتكارِ في اللغة القرآنية عند الشيخ الطاهر بن عاشور، إلى المعنى اللغوي للفظ (الابتكار)؛ فهو مأخوذ من الفعل الثلاثي المجرد (بكر)، ويبدو من العودة إلى المعجمات العربية أنَّ دلالتَه تَرتبطُ بالأولِ من كلِّ شيء، وقد يكونُ هذا المعنى أُطلِقَ أولَ الأمرِ على ما هو ماديّ كإطلاقِ اسمِ البِكْر على الطفلِ الأولِ، وعلى المرأة العذراء التي لم يَمْسَسْها رجل، كما يُطْلِقونه على أولِ النهارِ، إذ يسمونه (بُكْرة)، ويسمون الخروج فيه بالإبكار، قال الخليل: ((البَكْرُ من الإبل: ما لم يبزل بعد، والأنثى بَكْرة،...، والبِكْرُ: التي لم تمس من النساء بعد. والبِكرُ: أول ولد الرجل غلاماً كان أو

١ نفسه: ١/ ١١٥.

٢ نفسه: ١/ ١١٥.

٣ نفسه: ١/ ١١٠.

٤ البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠١، وينظر: الإتقان في علوم القرآن ٤/ ١٠، ومعترك الأقران: ١/ ٢٤، وأسرار ترتيب القرآن: ٢٢.

جارية،...، والبكرُ من كل شيء: أوله،...، والتّبكيرُ والبُكور والابتكار: المضي في ذلك الوقت. والإبكارُ: السيرورة فيه))[١]. وأضاف ابن دريد أن البكر هو ((الفَتيُّ من الإِبِل وَجمعه: بِكارٌ، وبِكَارةٌ. وَقَالَ أَبُو الهيثمِ: العربُ تسمِّي الَّتِي ولدت بَطنا وَاحِدًا بِكْراً بولدِها الَّذِي تَبتكِرُ بِهِ. وَيُقَال لَهَا أَيْضا بِكْرٌ مَا لم تَلد... والبُكْرَةُ من الغَدَاة تُجمع بُكراً وأبكاراً...، والبُكورُ، والتبكيرُ: الْخُرُوج فِي ذَلِك الْوَقْت. والإبكارُ: الدُّخول فِي ذَلِك الْوَقْت، وَيُقَال: باكَرْتُ الشَّيْء إِذا بكَّرْتَ لَهُ... وَفِي حَدِيث آخر: (مَنْ بَكَّرَ يوْمَ الجُمُعةِ وابتكر فلهُ كذَا)[٢] فَمَعْنَى بَكَّرَ: خرج إِلَى الْمَسْجِد باكِراً، وَمعنى ابتكر: أَدركَ أول الخُطبة. وَقَالَ أَبُو سعيد فِي قَوْله: من بكر وابتكر إِلَى الْجُمُعَة، تَفْسِيره عندنَا: من بكر إِلَى الْجُمُعَة قبل الْأَذَان، وَإِن لم يأتها باكراً فقد بكَّر، وَأما ابتكارها فَأن تدركَ أول وَقتهَا))[٣]. وبيَّن ابنُ فارس أنَّ (بكر) أصلٌ واحدٌ يتفرَّعُ إلى معانٍ، وهذا الأصلُ يدلُّ على أولِ الشيء وبُدُوّه، ومِن معانيه: ((الْبُكْرَةُ وَهِيَ الْغَدَاةُ، وَالْجَمْعُ الْبُكَرُ. وَالتَّبْكِيرُ وَالْبُكُورُ وَالِابْتِكَارُ: الْمُضِيُّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ))[٤]. وقال ابن منظور: ((وَقَدِ ابْتَكَرْتُ الشيءَ إِذا اسْتَوْلَيْتُ عَلَى بَاكُورَتِهِ. وابْتَكَرَ الرجلُ: أَكل باكُورَةَ الْفَاكِهَةِ،...، وَكُلُّ مَنْ أَسرع إِلى شَيْءٍ، فَقَدْ بَكَّرَ إِليه. وابْتَكَرَ: أَدرك الخُطْبَةَ مِنْ أَوَّلها، وَهُوَ مِنَ الْبَاكُورَةِ. وأَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ: باكُورتُه.....، وَفِي الْحَدِيثِ: (كَانَتْ ضَرَبَاتُ عَلِيٍّ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَبْكاراً إِذا اعْتَلَى قَدَّ وإِذا اعْتَرَضَ قَطَّ)؛ وَفِي رِوَايَةٍ: (كَانَتْ ضَرَبَاتُ عَلِيٍّ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُبْتَكَرَاتٍ لَا عُوناً)[٥] أَي أَن ضَرْبَتَهُ كَانَتْ بِكراً يَقْتُلُ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا لَا يَحْتَاجُ أَن يُعِيدَ الضَّرْبَةَ ثَانِيًا))[٦]. وقال الفيروزابادي: ((وبَكَرَ عليه، وإليه، وفيه بُكوراً، وبَكَّرَ وابْتَكَرَ وأبْكَرَ، وباكَرَهُ: أتاهُ بُكْرَةً، وكُلُّ مَنْ بادَرَ إلى شيءٍ: فقد أبْكَرَ إليه في أيّ وقتٍ كان. وبَكُرٌ وبكِرٌ: قَوِيٌّ على البُكورِ))[٧]. وفي تاج العروس: ((و) من الْمجَاز: (ابْتَكَرَ) الرجلُ، إِذا (أَدْرَكَ أَوّلَ الخُطْبَةِ). وعبارَةُ الأَساس: وابْتَكَرَ الخُطْبَةَ: سَمِعَ أَوّلَهَا؛ وَهُوَ مِن الباكُورة. (و) من الْمجَاز: ابْتَكَرَ، إِذا (أَكَلَ باكُورَةَ الفاكهةِ)، وأَصلُ الابتكارِ الاستيلاءُ على باكُورةِ الشَّيْءِ.وأَوّلُ كلِّ شيْءٍ: بكُورَتُه))[٨]. ويبدو مِن كلامِ الشيخِ الطاهرِ بن عاشور أنَّه يشترط في المبتكر القرآنيّ أنْ يكونَ أولُ استعمالِه في القرآنِ الكريم، أي أنْ لا يكون وارِدًا في شعر العرب أو نثرهم قبلَ الإسلام ولذلك نجده يؤكد أنَّه لم يجد نظائرَ لهذا المبتكر في كلام العرب، قال: ((وَلَمْ أَظْفَرْ، فِيمَا حَفِظْتُ مِنْ غَيْرِ القرآن، بِأَنَّهَا كَانَتْ مُسْتَعْمَلَةً عِنْدَ الْعَرَبِ، فَلَعَلَّهَا مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن))[٩]. وقال: ((وَلَمْ يَذْكُرُوا مِنْهُ شَيْئًا وَقَعَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ فَهُوَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن))[١٠]. وسنقف في البحث على عبارات أخرى مشابهة تؤكد هذا الفهم. ومن المهم أن نذكر أنَّ ما وسَمه الشيخُ الطاهرُ بالابتكارِ مُتنوعٌ من حيث البنية، كما أنَّ الأسبابَ التي تؤدي إلى هذا الوصفِ مختلفةٌ هي الأخرى؛ فقد يكونُ لفظًا مفردًا نَقَلَ القرآنُ الكريمُ دلالتَه إلى دلالةٍ جديدةٍ غيرِ مسبوقةٍ في كلام العرب، وقد يكون عبارةً غيرَ مستعملةٍ سابقًا ولها دلالةٌ

---

١ العين ٥/ ٣٦٤ – ٣٦٥. وينظر: جمهرة اللغة ١/ ٣٢٦، والصحاح ٢/ ٥٩٦–٥٩٧، ولسان العرب ٤/ ٧٦.

٢ في: مسند أحمد ٢٦/ ٨٣، بلفظ اخر، فيه: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فَغَسَلَ أَحَدُكُمْ رَأْسَهُ، وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ غَدَا أَوْ ابْتَكَرَ، ثُمَّ دَنَا فَاسْتَمَعَ، وَأَنْصَتَ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ خَطَاهَا، كَصِيَامِ سَنَةٍ، وَقِيَامِ (٢) سَنَةٍ ". وفي: المعجم الكبير للطبراني ١/ ٢١٦: عنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ غَدَا، أَوْ رَاحَ، أَوِ ابْتَكَرَ، ثُمَّ دَنَا وَأَنْصَتَ وَاسْتَمَعَ، كَانَ لَهُ بِقَدْرِ كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا كَأَجْرِ قِيَامِ سَنَةٍ، وَصِيَامِ سَنَةٍ»

٣ تهذيب اللغة ١٠/ ١٢٧–١٢٨.

٤ مقاييس اللغة ١/ ٢٨٧.

٥ الحديث بهذا اللفظ في: غريب الحديث للخطابي ٣/٣٢١، وغريب الحديث لابن الجوزي ٨٤/١، والنهاية في غريب الحديث والأثر ١٤٩/١.

٦ لسان العرب ٤/ ٧٧– ٨١.

٧ القاموس المحيط: ٣٥٣–٣٥٤، وتاج العروس ١٠/ ٢٣٦.

٨ تاج العروس ١٠/ ٢٤١– ٢٤٦. وينظر: أساس البلاغة ١/ ٧٢، والمغرب في ترتيب المعرب: ٣٤٠.

٩ التحرير والتنوير ٤/ ٨٣.

١٠ نفسه ١٧/ ٦٢.

جديدة أيضا، أو أنها مستعملة على نحْوٍ فنيٍّ وبلاغيٍّ لم يَسْبق للعرب أن عرفته، كما في بعض الأمثلة التي سنقف عليها وكما في بعض الأمثال القرآنية التي رأى الشيخ الطاهر أنَّها مما لم يعهده العرب، وقد يكون جملةً موجزةً ذات دلالة حَكمية جامعة تجري مَجرى المثل. ولا بدَّ مِن الإشارةِ هنا إلى أنَّ الابتكارَ من المصطلحات التي تُستعمل في ميدانِ النقد الأدبي، ويحيل غالبا على ما لا يمكن تقليده، بل إنَّ الابتكارَ والتقليدَ عند بعض المختصين بالنقد الأدبيِّ طَرَفَا نقيض[1]. ويمتاز النصُّ الذي يتصف بالابتكار أو الاختراع بالأصالة التي تنتج من توافر عنصرين هما عمق الإحساس – وهذا يكون في ميدان الشعر طبعًا– والعنصر الثاني استقلال التعبير وتميزه[2]. وفي ضوء المنهج الذي اتخذه الشيخ الطاهر لعرض موضوع موضوع المبتكرات اللغوية في القرآن الكريم وطريقته في تناولها يمكننا ان نقسم مظاهر الابتكار في اللغة القرآنية –كما فهمها الشيخ الطاهر– على قسمين، وسنقوم بعرضهما على النحو الآتي:

القسم الأول: وفيه عالج مجموعة من الأساليب اللغوية التي يمكن أن نصفها بالعامة، لأنها **مبتكرات** تعمُّ أسلوب القرآن جميعه ولا تخصّ لفظاً منه بعينه أو آيةً محددة أو نصًا مخصوصًا، وهذا الأمر نابع– كما سبقت الإشارة – مِن توجُّهِهِ، إلى جَمْعِ كلِّ ما يؤيدُ قضيةَ الإعجازِ اللغويِّ للقرآنِ الكريمِ، ومن هنا فقد عَرَضَ الطاهرُ مجموعةً مِن الأشكالِ التعبيريَّة الرئيسةِ التي ميَّزت نَظْمَ القرآنِ مِن بقيةِ كلامِ العربِ، والأنماط الأسلوبية الجديدة التي وسمت النص القرآني بميسمها، فكان مختلفًا، ومِن ثَمَّ، كان نصًّا مبتكرًا متميزًا. وسنقف في هذا الجزء من البحث على تلك المبتكرات التي تشمل ظواهرَ أساسية وكبيرة، قام عليها بناء النص القرآني الكريم، فأضفتْ عليه طابع الابتكار والتفرد والإعجاز. نصَّ الشيخُ الطاهرُ على أنَّ للقران مبتكراتٍ تميز بها، قال: ((هَذَا وَلِلْقُرْآنِ مُبْتَكَرَاتٌ تَمَيَّزَ بِهَا نَظْمُهُ عَنْ بَقِيَّةِ كَلَامِ الْعَرَبِ))[3]. وفي ما يأتي يقف البحث على تلك الأساليب الرئيسة التي تتصف بصفة الابتكار، والسبب الذي دعا الشيخ الطاهر إلى وصفها بهذا الوصف، موازنين بعد ذلك بين كلامه عليها من جهة وما قاله العلماء السابقون فيها من جهة أخرى، للكشف عن مدى الجدة في أقواله ومرجعياته في ما ذهب إليه.

١. يرى الطاهر بن عاشور أنَّ من القران الكريم ابتكر أسلوبه الخاص به في مبناه العام؛ إذ جاء القرآنِ على أسلوب يختلف عن أسلوب الشعر والنثر آنذاك، قال: ((أَنَّهُ جَاءَ عَلَى أُسْلُوبٍ يُخَالِفُ الشِّعْرَ لَا مَحَالَةَ، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ، وَأَنَا أَضُمُّ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ أسلوبه يُخَالف أسلوب الْخَطَابَةِ بَعْضَ الْمُخَالَفَةِ))[4]. وقد أرجع سبب هذا الاختلاف إلى إلى أنَّ القرآنَ كتابُ حفظٍ وتلاوة وأنَّ هذا من وجوه إعجازه؛ لأنَّ الطريقةَ التي بُنِي عليها طريقةٌ مُبتكرةٌ، قال: ((جَاءَ بِطَرِيقَةِ كِتَابٍ يُقْصَدُ حِفْظُهُ وَتِلَاوَتُهُ، وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ إِعْجَازِهِ إِذْ كَانَ نَظْمُهُ عَلَى طَرِيقَةٍ مُبْتَكَرَةٍ لَيْسَ فِيهَا اتِّبَاعٌ لِطَرَائِقِهَا الْقَدِيمَةِ فِي الْكَلَامِ))[5]. وما ذهب إليه الطاهر هنا نجد له مصادر سابقة عند بعض علماء الإعجاز السابقين؛ فقد أشار بعضُ القدماء إلى أنَّ القرآن جنسٌ مختلفٌ عن الشعرِ والخطابةِ، ومن ذلك قول الباقلاني: ((ونظم القرآن جنس متميز، وأسلوب متخصص، وقبيل عن النظير متخلص))[6]. ومنه ما ورد في قول القاضي عياض: ((الْوَجْهُ الثَّانِي من إِعْجَازِهِ صُورَةُ نَظْمِهِ العَجِيبِ وَالْأُسْلُوبُ الْغَرِيبُ الْمُخَالِفُ لِأَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَمَناهِج نَظْمِهَا وَنَثْرِهَا الَّذِي جَاءَ عَلَيْهِ وَوَقَفَتْ مَقَاطِعُ آيِهِ وَانْتَهَتْ فَوَاصِلُ كلمات إِلَيْهِ وَلَمْ يُوجَدْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ نَظِيرٌ لَهُ وَلَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مُمَاثَلَةَ شيء مِنْهُ بَلْ حَارَتْ فِيهِ عُقُولُهُمْ وَتَدَلَّهَتْ دُونَهُ أَحْلامُهُمْ وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى مِثْلِهِ فِي جِنْسِ كَلامِهِمْ من نَثْرٍ أَوْ نَظْمٍ أَوْ سَجْعٍ أَوْ رَجْزٍ أَوْ شِعْرٍ))[7].

---

١ ينظر: الابتكار في الأدب والفنون:٢٩، ٣١.

٢ ينظر: ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر: ٨١-٨٢.

٣ التحرير والتنوير ١/ ١٢٠.

٤ نفسه ١/ ١٢٠.

٥ نفسه ١/ ١٢٠.

٦ إعجاز القرآن للباقلاني:٢٤٣.

٧ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٢٦٤.

وقال الراغب عن الأسلوب القرآني: ((بالنظم المخصوص صار القرآن قرآنا))[١]، قال القرطبي: ((ووجوه إعجاز القرآن عَشْرَةٌ: مِنْهَا النَّظْمُ الْبَدِيعُ الْمُخَالِفُ لِكُلِّ نَظْمٍ مَعْهُودٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَفِي غَيْرِهَا،...، ومنها الْأُسْلُوبُ الْمُخَالِفُ لِجَمِيعِ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ))[٢]، ومن ذلك ما نقله الزركشي عن بعضهم من أن الإعجاز في القرآن يعود إلى ((مَا فِيهِ مِنَ النَّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ وَالتَّرْصِيفِ وَ[إلى]أَنَّهُ خَارِجٌ عَنْ جَمِيعِ وُجُوهِ النَّظْمِ الْمُعْتَادِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَمُبَايِنٌ لِأَسَالِيبِ خِطَابَاتِهِمْ))[٣]. وقال السيوطي في هذا الباب أيضًا: ((وأسلوبه الغريب مخالفاً لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاءت عليه، ووقفت عليه مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصلُ كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له))[٤]. وبيّنَ السيوطيُّ في موضع آخرَ أنَّ مِن وجوه إعجاز القرآن تفرّده عن الشعر والنثر وأطلق على ذلك اسم: نقض العادة، قال: ((وَنَقْضُ الْعَادَةِ هُوَ أَنَّ الْعَادَةَ كَانَتْ جَارِيَةً بِضُرُوبٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ مَعْرُوفَةٍ مِنْهَا الشِّعْرُ وَمِنْهَا السَّجْعُ وَمِنْهَا الْخُطَبُ وَمِنْهَا الرَّسَائِلُ وَمِنْهَا الْمَنْثُورُ الَّذِي يَدُورُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَدِيثِ فَأَتَى القرآن بِطَرِيقَةٍ مُفْرَدَةٍ خَارِجَةٍ عَنِ الْعَادَةِ لَهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْحُسْنِ تَفُوقُ بِهِ كل طريقة وتفوق الْمَوْزُونُ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ الْكَلَامِ))[٥].

٢. عدّ الشيخُ الطاهرُ بنُ عاشور من صور الابتكار في اللغة القرآنية: الجمل التي تدلُّ على معانٍ مفيدةٍ محررةٍ لا يدخلها الاستدراكُ أو النقضُ بوجود الاستثناء، وكأنّها جُمَلٌ علمية أو قواعدُ تشريعية، قال: ((وَأَعُدُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ جَاءَ بِالْجُمَلِ الدَّالَّةِ عَلَى مَعَانٍ مُفِيدَةٍ مُحَرَّرَةٍ، شَأْنَ الْجُمَلِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْقَوَاعِدِ التَّشْرِيعِيَّةِ))[٦]، ومَرجع القول بالابتكار عنده، هنا، أنَّ هذه الجمل في اللغة القرآنية صاغها واضعُها بإتقانٍ؛ فما كان غايتُه التخصيصَ جاء مخصصًا وما أُريدَ به التقييدُ وَرَدَ مُقيداً غير عام، واستعمال اللغة على هذا النحو يعدُّ استعمالًا مُبتكرًا نسبةً إلى ما كان يفعله العرب من قلة اهتمام بالأحوال القليلة والأفراد النادرة، قال: ((فَلم يَأْتِ بعمومات شَأْنُهَا التَّخْصِيصُ غَيْرَ مَخْصُوصَةٍ، وَلَا بِمُطْلَقَاتٍ تَسْتَحِقُّ التَّقْيِيدَ غَيْرَ مُقَيَّدَةٍ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ الْعَرَبُ لِقِلَّةِ اكْتِرَاثِهِمْ بِالْأَحْوَالِ الْقَلِيلَةِ وَالْأَفْرَادِ النَّادِرَةِ))[٧]، وذَكَرَ من أمثلة ذلك قَوْله تَعَالَى:﴿ لَا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ﴾ [النساء: ٩٥]، وبيّن موضع الدقة فيه، قال: ((وَإِذْ قَدْ كَانَ وَجْهُ التَّفَاضُلِ مَعْلُومًا فِي أَكْثَرِ مَوَاقِعِ أَمْثَالِ هَذَا التَّرْكِيبِ، صَارَ فِي الْغَالِبِ أَمْثَالُ هَذَا التَّرْكِيبِ مُسْتَعْمَلَةً فِي مَعْنَى الْكِنَايَةِ، وَهُوَ التَّعْرِيضُ بِالْمَفْضُولِ فِي تَفْرِيطِهِ وَزُهْدِهِ فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مَعَ الْمُكْنَةِ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ هُوَ هُنَا لِظُهُورِ أَنَّ الْقَاعِدَ عَنِ الْجِهَادِ لَا يُسَاوِي الْمُجَاهِدَ فِي فَضِيلَةِ نُصْرَةِ الدِّينِ، وَلَا فِي ثَوَابِهِ عَلَى ذَلِكَ، فَتَعَيَّنَ التَّعْرِيضُ بِالْقَاعِدِينَ وَتَشْنِيعُ حَالِهِمْ. وَبِهَذَا يَظْهَرُ مَوْقِعُ الِاسْتِثْنَاءِ بِقَوْلِهِ: غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ كَيْلَا يَحْسَبَ أَصْحَابُ الضَّرَرِ أَنَّهُمْ مَقْصُودُونَ بِالتَّحْرِيضِ فَيَخْرُجُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَيُكَلِّفُوهُمْ مُؤُونَةَ نَقْلِهِمْ وَحِفْظِهِمْ بِلَا جَدْوَى، أَوْ يَظُنُّوا أَنَّهُمْ مَقْصُودُونَ بِالتَّعْرِيضِ فَتَنْكَسِرُ لِذَلِكَ نُفُوسُهُمْ، زِيَادَةً عَلَى انْكِسَارِهَا بِعَجْزِهِمْ، وَلِأَنَّ فِي اسْتِثْنَائِهِمْ إِنْصَافًا لَهُمْ وَعُذْرًا بِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا قَادِرِينَ لَمَا قَعَدُوا، فَذَلِكَ الظَّنُّ بِالْمُؤْمِنِ، وَلَوْ كَانَ الْمَقْصُودُ صَرِيحَ الْمَعْنَى لَمَا كَانَ لِلِاسْتِثْنَاءِ مَوْقِعٌ. فَاحْفَظُوا هَذَا فَالِاسْتِثْنَاءُ مَقْصُودٌ، وَلَهُ مَوْقِعٌ من البلاغة لا يضاع، وَلَوْ لَمْ يُذْكَرُ الِاسْتِثْنَاءُ لَكَانَ تَجَاوُزُ التَّعْرِيضِ أَصْحَاب الضَّرَر مَعْلُومَات فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ فَالِاسْتِثْنَاءُ عُدُولٌ عَنِ الِاعْتِمَادِ عَلَى الْقَرِينَةِ إِلَى التَّصْرِيحِ بِاللَّفْظِ))[٨]. وقد ألمحَ الزمخشري إلى طَرَفٍ من هذا، قال: ((فإن قلت: معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان، فما فائدة نفى الاستواء؟ قلت: معناه الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم

---

١ تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٤.

٢ الجامع لأحكام القرآن ١/ ٧٣.

٣ البرهان في علوم القرآن ٢/ ٩٨.

٤ معترك الأقران ١/ ٢٣.

٥ الإتقان في علوم القرآن ٤/ ١٨.

٦ التحرير والتنوير ١/ ١٢٠.

٧ نفسه ١/ ١٢٠.

٨ نفسه ٥/ ١٧٠.

والبون البعيد، ليأنف القاعد ويترقع بنفسه عن انحطاط منزلته، فيهتز للجهاد ويرغب فيه وفي ارتفاع طبقته))[١]. كما مثَّلَ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وكشف الشيخ الطاهر عن وجه التحرير في الآية، قال: ((فَبَيَّنَ أَنَّ الْهَوَى قَدْ يَكُونُ مَحْمُودًا إذا كَانَ هوى الْمَرْءِ عَنْ هُدًى))[٢]، وَمنه قَوْلُهُ تعالى:﴿ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العَصْر: ٢، ٣]، التي قال في تفسيرِ وجْهِ التحريرِ فيها: ((وَتَعْرِيفُ الْإِنْسانَ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ مُرَادٌ بِهِ الِاسْتِغْرَاقُ وَهُوَ اسْتِغْرَاقٌ عُرْفِيٌّ الْإِنْسَانِيِّ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَنِ نُزُولِ الْآيَةِ وَهُوَ زَمَنُ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ،....، وَمَخْصُوصٌ بِالنَّاسِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ فِي بِلَادِ الْعَالَمِ عَلَى تَفَاوُتِهَا. وَلَمَّا اسْتُثْنِيَ مِنْهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بَقِيَ حُكْمُهُ مُتَحَقِّقًا فِي غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ،...، وَقَدْ دَلَّ اسْتِثْنَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ أَنْ يَكُونُوا فِي خُسْرٍ عَلَى أَنَّ سَبَبَ كَوْنِ بَقِيَّةِ الْإِنْسَانِ فِي خُسْرٍ هُوَ عَدَمُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِدَلَالَةِ مَفْهُومِ الصِّفَةِ. وَعُلِمَ مِنَ الْمَوْصُولِ أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ هُمَا سَبَبُ انْتِفَاءِ إِحَاطَةِ الْخُسْرِ بِالْإِنْسَانِ))[٣].

٣. ومن مظاهر الابتكار الكلية في القرآن الكريم – عند الشيخ الطاهر – أنَّه بُنِي على تقسيم جديد لا عهد للعرب به وهو تقسيمه على السور كما جاء مبوّبًا في داخل كل سورة على نحو جديد ومبتكر أيضا، فجاء مبنيًا على الآيات، قال: ((وَمِنْهَا أَنْ جَاءَ عَلَى أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ وَالتَّسْوِيرِ وَهِيَ سُنَّةٌ جَدِيدَةٌ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ أَدْخَلَ بِهَا عَلَيْهِ طَرِيقَةَ التَّبْوِيبِ وَالتَّصْنِيفِ وَقَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهَا فِي «الْكَشَّافِ» إِيمَاءً))[٤]. وإيماءة الزمخشري هذه التي يشير إليها الشيخ الطاهر جاءت في تفسير قوله تعالى:﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٢٣) [البقرة: ٢٣]، قال الزمخشريُّ: ((والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات،....، فان قلت: ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً؟ قلت: ليست الفائدة في ذلك واحدة. ولأمر ما أنزل اللَّه التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسوّرة مترجمة السور. وبوّب المصنفون في كل فنّ كتبهم أبوابا موشحة الصدور بالتراجم. ومن فوائده: أنّ الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف، كان أحسن وأنبل وأفخم من أن يكون بيانا واحدا. ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله))[٥]، وقد يُفهم من كلام الزمخشريِّ أنَّ هذا الاستعمالَ كان موجودًا قبل القرآنِ الكريم مما ينقض كونه مبتكرًا، ولكننا نرى أنَّ الزمخشريَّ لم يُرِد القول إنَّه كان مستعملًا بلفظ السورة بنصِّه وبالبناء الذي نعهده في القرآن الكريم، ولكنه عبَّر عن ذلك بما هو موجود في الإسلام والمتمثل بما في القرآن الكريم. والعرب قديمًا اتخذت اسمًا للبيت وللبيتين فصاعدًا ولم يستعملوا اسم السورة؛ نقل الباقلاني عن العرب أنها كانت: ((تسمي البيت الواحد يتيماً، وكذلك يقال: "الدرة اليتيمة"، لانفرادها، فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهي "نتفة"، وإلى العشرة تسمى "قطعة"، وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى "قصيداً"، وذلك مأخوذ من المخ القصيد، وهو المتراكم بعضه على بعض، وهو ضد الرار، ومثله الرئيد))[٦]. وبَحَثَ الزركشيُّ في الحكمة من تقسيم النصِّ القرآنيِّ إلى سورٍ، وربط ذلك بالإعجاز؛ قال: ((فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْحِكْمَةُ فِي تَقْطِيعِ القرآن سُوَرًا؟ قُلْتُ: هِيَ الْحِكْمَةُ فِي تَقْطِيعِ السُّوَرِ آيَاتٍ مَعْدُودَاتٍ لِكُلِّ آيَةٍ حَدٌّ وَمَطْلَعٌ حَتَّى تَكُونَ كُلُّ سُورَةٍ بَلْ كُلُّ آيَةٍ فَنًّا مُسْتَقِلًّا وَقُرْآنًا مُعْتَبَرًا وَفِي تَسْوِيرِ السُّورَةِ تَحْقِيقٌ لِكَوْنِ السُّورَةِ بِمُجَرَّدِهَا مُعْجِزَةً وَآيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُوِّرَتِ السُّوَرُ طِوَالًا وَقِصَارًا وَأَوْسَاطًا تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الطُّولَ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْإِعْجَازِ فَهَذِهِ سُورَةُ الْكَوْثَرِ ثَلَاثُ آيَاتٍ وَهِيَ مُعْجِزَةٌ إِعْجَازَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثُمَّ ظَهَرَتْ لِذَلِكَ

---

١ الكشاف ١/ ٥٥٣– ٥٥٤.

٢ التحرير والتنوير ١/ ١٢٠.

٣ نفسه ٣٠/ ٥٣١– ٥٣٢.

٤ نفسه ١/ ١٢٠.

٥ الكشاف ١/ ٩٧– ٩٨.ونقل الشيخ الطاهر بعضه في: التحرير والتنوير ١/ ٨٦.

٦ إعجاز القرآن: ٢٥٧، والبرهان في علوم القرآن ١/ ٢٦٤.

حِكْمَةٌ فِي التَّعْلِيمِ وَتَدْرِيجِ الْأَطْفَالِ مِنَ السُّوَرِ الْقِصَارِ إِلَى ما فَوْقَهَا يَسِيرًا يَسِيرًا تَيْسِيرًا مِنَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ لِحِفْظِ كِتَابِهِ))[١].

٤. وذكر الشيخ الطاهر من أشكال الابتكار الرئيسة في الخطاب القرآني، مما جاء متكررًا لا يمكن حصره؛ لأنه يؤلف نمطا أساسيا في بنية الخطاب القرآني، ما جاء فيه من أسلوب قصصي في ((حِكَايَةِ أَحْوَالِ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَفِي تَمْثِيلِ الْأَحْوَالِ))[٢]. وهو يرى أن لهذا الأسلوب تأثيرا في النفس العربية، وأن هذا الأسلوب جديدٌ في الأدب العربي أو مفقود منه إلا ما ندر، ومن ثمَّ، كان مُبْتَكَرًا بُهِر العربُ به، قال: ((وَقَدْ كَانَ لِذَلِكَ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ عَلَى نُفُوسِ الْعَرَبِ إِذْ كَانَ فَنُّ الْقَصَصِ مَفْقُودًا مِنْ أَدَبِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا نَادِرًا، كَانَ فِي بَعْضِ الشِّعْرِ كَأَبْيَاتِ النَّابِغَةِ فِي الْحَيَّةِ الَّتِي قَتَلَتِ الرَّجُلَ وَعَاهَدَتْ أَخَاهُ وَغَدَرَ بِهَا، فَلَمَّا جَاءَ القرآن بِالْأَوْصَافِ بُهِتَ بِهِ الْعَرَبُ كَمَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ [٤٤] مِنْ وَصْفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ﴾ إِلَخْ وَفِي سُورَةِ الْحَدِيدِ [١٣]: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾ الْآيَاتِ))[٣]. وقد سَبَقَ القاضي عياض إلى عدِّ ما جاء في القرآن من قصص مظهرًا من مظاهر إعجازه، قال مشيرا إلى ذلك: ((ثُمَّ هُوَ فِي سَرْدِ الْقِصَصِ الطِّوَالِ وَأَخْبَارِ الْقُرُونِ السَّوَالِفِ التي يَضْعفُ فِي عَادَةِ الْفُصَحَاءِ عِنْدَهَا الْكَلَامُ وَيَذْهَبُ مَاءُ الْبَيَانِ آيَةٌ لِمُتَأَمِّلِهِ من رَبْطِ الْكَلَامُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ وَالْتِئَامِ سَرْدِهِ وَتَنَاصُفِ وُجُوهِهِ كَقِصَّةِ يُوسُفَ عَلَى طُولِهَا ثُمَّ إِذَا تَرَدَّدَتْ قِصَصُهُ اخْتَلَفَتِ الْعِبَارَاتُ عَنْهَا عَلَى كَثْرَةِ تَرَدُّدِهَا حَتَّى تَكَادَ كُلّ وَاحِدَةٍ تُنَسّي فِي الْبَيَانِ صَاحِبَتَهَا وَتَنَاصِفُ فِي الْحَسَنِ وَجْهَ مُقَابِلَتِهَا وَلَا نُفُورَ لِلنُّفُوسِ من تَرْدِيدِهَا وَلَا مُعَادَاةَ لِمُعَادِهَا))[٤]. ووقف الفيروزابادي على القصص القرآني ومنهج القرآن الكريم في تقديم القصة الواحدة بطرائقَ مختلفةٍ وما يتبع ذلك من اعتماد أساليبَ لغويةٍ جديدةٍ ؛ قال: ((وأَمَّا تصريف القِصَص والأَحوال فهو أَنَّ الله تعالى ذكر بحِكَمِهِ البالغة أَحوال القرون الماضية، ووقائع الأَنبياءِ، وقصصهم، بأَلفاظ مختلفة، وعبارات متنوِّعة، بحيث لو تأَمّل غوّاصو بحار المعاني، وخوَّاضو لُجَج الحُجَج، وتفكّروا فى حقائقها، وتدبَّروا فى دقائقها، لعلموا وتيقَّنوا (وتحققوا) وتبيَّنوا أَنَّ ما فيها من الأَلفاظ المكرَّرة المعادات، إِنَّما هي لأَسرار، ولطائف لا يرفع بُرْقع حجابها من الخاصَّة إِلاَّ أَوحدُهم وأَخصُّهم، ولا يكشف سِتر سرائرها من النحارير إِلاَّ واسِطتهم وقصهم))[٥]. ولا بد أن نذكر أنَّ بعض الباحثين المحدثين أشار إلى أنَّ العرب لم يعرفوا القصائد القصصية في شعرهم، من ذلك ما نجده في قول الرافعي: ((ان الشعر القصصي –بالمعنى المصطلح عليه– لم يكن في طبيعة العرب ولا هو من مقتضيات اجتماعهم، فهم لم ينظموه في جاهليتهم قطعًا، ولم ينظمه من بعدهم لوقوفهم عند حد التقليد))[٦]. في حين حين أشار بعض الباحثين إلى أنَّ في بعض القصائد الجاهلية أسلوبًا قصصيًا كما في معلقة امرئ القيس وفي شعر صعاليك ما قبل الإسلام مثل الشنفرى الأزدي وتأبط شرا[٧].

٥. وقد أدَّى هذا الأسلوبُ القصصيُّ الجديد الذي جاء به النصُّ القرآنيُّ الكريم إلى ابتكار مسلكٍ لغويٍّ جديد آخرَ في التعامل مع الأقوال المحكية في الأسلوب الحواري للقصص التي يرويها، فكان ينقلها كما وردت على ألسنة أصحابها من حيث المعنى، ولكنه لم يكن ينقلها بلفظها نفسه أو بلغةِ شخوصِها الأصلية، وإنما كان ينقلها باللغة العربية وبصياغة جديدة تناسب ما يتصف به النصُّ القرآنيُّ من بلاغةٍ وفصاحةٍ وإعجازٍ للعرب، قال: ((وممَّا يَتْبَعُ هَذَا أَنَّ القرآن يَتَصَرَّفُ فِي حِكَايَةِ أَقْوَالِ الْمَحْكِيِّ عَنْهُمْ فَيَصُوغُهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ أُسْلُوبُ إِعْجَازِهِ لَا عَلَى الصِّيغَةِ الَّتِي صَدَرَتْ

---

١ البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٦٤– ٢٦٥.

٢ التحرير والتنوير ١/ ١٢٠.

٣ نفسه ١/ ١٢٠.

٤ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٢٦٤.

٥ بصائر ذوي التمييز: ١/ ٧١.

٦ تاريخ آداب العرب ٣/ ٩٦.

٧ ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي:٢٧٩– ٢٨١، وتاريخ آداب العرب ٣/ ٩٧، والفن ومذاهبه في النثر العربي: ١٦.

فِيهَا، فَهُوَ إِذَا حَكَى أَقْوَالًا غَيْرَ عَرَبِيَّةٍ صَاغَ مَدْلُولَهَا فِي صِيغَةٍ تَبْلُغُ حَدَّ الْإِعْجَازِ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَإِذَا حَكَى أَقْوَالًا عَرَبِيَّةً تَصَرَّفَ فِيهَا تَصَرُّفًا يُنَاسِبُ أُسْلُوبَ الْمُعَبِّرِ مِثْلَ مَا يَحْكِيهِ عَنِ الْعَرَبِ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ حِكَايَةَ أَلْفَاظِهِمْ بَلْ يَحْكِي حَاصِلَ كَلَامِهِمْ))[١]. غير أنه عقّب بعْدَ ذلك بأنَّ مثل هذا التغيير اللفظيّ في الأقوال المحكية هو من سنن العرب؛ لأنَّ مدارَ الأمر عندهم الإحاطةُ بالمعنى، قال: ((وَلِلْعَرَبِ فِي حِكَايَةِ الْأَقْوَالِ اتِّسَاعٌ مَدَارُهُ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِالْمَعْنَى دُونَ الْتِزَامِ الْأَلْفَاظِ، فَالْإِعْجَازُ الثَّابِتُ لِلْأَقْوَالِ الْمَحْكِيَّةِ فِي القرآن هُوَ إِعْجَازٌ لِلْقُرْآنِ لَا لِلْأَقْوَالِ الْمَحْكِيَّةِ))[٢]. وفي كلامه السابق ما يوحي بأنَّ القرآنَ الكريمَ في مسلكه هذا لم يكن مُبتكِرًا لأنّه كان مسبوقًا بمثل هذا النهج اللغوي. وربما يمكن القول إنه أراد بالعرب هنا ما بعد الإسلام وبعد القرآن الكريم فلا ينتقض هذا النمط. وفي الحقيقة أننا عندما قرأنا هذا الكلام تبادر إلى ذهننا أنَّ من غير المعقول أنْ يكون شعرُ العرب خاليًا من مثل هذه الظاهرة، إذ لا يعقل أنَّ الشعراء حين يَحْكون أقوال غيرهم في شعرهم لم يُغَيّروه بسبب الوزن والقافية، وربما يكون الجواب على مثل هذا الاعتراض متمثلا في ما ذكره الشيخ من أنَّ العرب لم تكن تعرف الفن القصصيَّ سابقًا إلا نادرًا. وقد جعل الشيخُ الطاهرُ ما يصيبُ الأسماءَ الواردة في القصص القرآنيِّ مِن تغييرٍ غايتَه الفصاحةُ والإعجازُ داخلًا في هذا الباب أيضا، قال: ((وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ حِكَايَةُ الْأَسْمَاءِ الْوَاقِعَةِ فِي الْقِصَصِ فَإِنَّ القرآن يُغَيِّرُهَا إِلَى مَا يُنَاسِبُ حُسْنَ مَوَاقِعِهَا فِي الْكَلَامِ مِنَ الْفَصَاحَةِ مِثْلَ تَغْيِيرِ شَاوِلَ إِلَى طَالُوتَ، وَتَغْيِيرِ اسْمِ تَارَحَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ إِلَى آزَرَ))[٣].

إنَّ هذا التغيير في الأسماء أمرٌ أشار إليه بعض المفسرين القدماء، ومنهم مثلًا البغوي الذي قال: ((وَكَانَ طَالُوتُ اسْمُهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ شَاوِلُ بْنُ قَيْسٍ مِنْ أَوْلَادِ بِنْيَامِينَ بْنِ يَعْقُوبَ، سُمِّيَ طَالُوتَ لِطُولِهِ))[٤]. في حين ذهب الفخر الرازي إلى أنَّ اسمه آزر وليس تارح، قال: ((وَالدَّلِيلُ الْقَوِيُّ عَلَى صِحَّةِ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ، أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ كَانُوا فِي غَايَةِ الْحِرْصِ عَلَى تَكْذِيبِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَإِظْهَارِ بُغْضِهِ، فَلَوْ كَانَ هَذَا النَّسَبُ كَذِبًا لَامْتَنَعَ فِي الْعَادَةِ سُكُوتُهُمْ عَنْ تَكْذِيبِهِ وَحَيْثُ لَمْ يُكَذِّبُوهُ عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا النَّسَبَ صَحِيحٌ واللَّه أَعْلَمُ))[٥]. وعالج السيوطيُّ موضوعًا قريبًا من هذا وهو ما سمّاه: (إدراج كلام الغير في الكلام)، وجعل غايتَه التوكيدَ، ناقلا أنه لم يَرِدْ منه في القرآن إلا في موضعين، قال: ((إِدْرَاجُ كَلَامِ الْغَيْرِ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ لِقَصْدِ تَأْكِيدِ الْمَعْنَى، أَوْ تَرْتِيبِ النَّظْمِ وَهَذَا هُوَ النَّوْعُ الْبَدِيعِيُّ قَالَ ابْنُ أَبِي الْإِصْبَعِ: وَلَمْ أَظْفَرْ فِي القرآن بِشَيْءٍ مِنْهُ إِلَّا فِي مَوْضِعَيْنِ تَضَمَّنَا فَصْلَيْنِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ الْآيَةَ وَقَوْلِهِ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ الْآيَةَ))[٦].

٧. ومن صور الابتكار اللغوي في الخطاب القرآنيِّ الأمثالُ التي جاءت في جملٍ بليغةٍ، تداولتها الألسنُ، قال ((وَكَذَلِكَ التَّمْثِيلُ فَقَدْ كَانَ فِي أَدَبِ الْعَرَبِ الْأَمْثَالُ وَهِيَ حِكَايَةُ أَحْوَالٍ مَرْمُوزٍ لَهَا بِتِلْكَ الْجُمَلِ الْبَلِيغَةِ الَّتِي قِيلَتْ فِيهَا أَوْ قِيلَتْ لَهَا الْمُسَمَّاةِ بِالْأَمْثَالِ، فَكَانَتْ تِلْكَ الْجُمَلُ مُشِيرَةً إِلَى تِلْكَ الْأَحْوَالِ، إِلَّا أَنَّهَا لَمَّا تَدَاوَلَتْهَا الْأَلْسُنُ فِي الِاسْتِعْمَالِ وَطَالَ عَلَيْهَا الْأَمَدُ نُسِيَتِ الْأَحْوَالُ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا وَلَمْ يَبْقَ لِلْأَذْهَانِ عِنْدَ النُّطْقِ بِهَا إِلَّا الشُّعُورُ بِمَغَازِيهَا الَّتِي تُقَالُ لِأَجْلِهَا. أَمَّا القرآن فَقَدْ أَوْضَحَ الْأَمْثَالَ وَأَبْدَعَ تَرْكِيبَهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ [إبراهيم: ١٨] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] وَقَوْلِهِ:﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٣٩] وَقَوْلِهِ: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ﴾ [الرعد: ١٤])). وما وصفه

---

١ التحرير والتنوير ١/ ١٢٠-١٢١.

٢ نفسه ١/ ١٢١.

٣ نفسه ١/ ١٢١.

٤ تفسير البغوي ١/ ٣٣٣.

٥ مفاتيح الغيب ١٣/ ٣٢.

٦ الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٣٠٩.

الشيخ الطاهر بالابتكار هنا سبق أنْ أشار إليه بعض المفسرين، ومنهم الزمخشري الذي بيّن أنَّ الغرض من استعمال الأمثال هو الكشف عن المعنى الخفي على نحوٍ جليّ، قال: ((انّ التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهم من المشاهد. فإنْ كان المتمثل له عظيمًا كان المتمثلُ به مثلَه، وإن كان حقيرًا كان المتمثلُ به كذلك. فليس العِظَمُ والحقارة في المضروب به المثلُ إذاً إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجرّه إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية. ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلج، كيف تمثل له بالضياء والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته، كيف تمثل له بالظلمة؟ ولما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً للَّه تعالى لا حال أحقر منها وأقلّ، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقلّ من الذباب وأخس قدرا، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلا لم يستنكر ولم يستبدع))[١]. وقد نبّه الزركشي على أنَّ التمثيلَ إنما يكون بأمرٍ ظاهرٍ مقبولٍ لا خلافَ فيه لكي يَبْنِي عليه ما يُريد تقريره مِن حقيقةٍ؛ قال: ((وَمِنْهُ التَّمْثِيلُ وَإِنَّمَا يَكُونُ بِأَمْرٍ ظَاهِرٍ يُسَلِّمُهُ السَّامِعُ وَيُقَوِّيهِ مَا فِي القرآن مِنْ قَصَصِ الْأَشْقِيَاءِ تَحْذِيرًا لِمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَأَخْبَارِ السُّعَدَاءِ تَرْغِيبًا لِمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الثواب وفي الحديث "أرأيت لو مضمضت أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ " كَيْفَ ظَهَرَ إِمْكَانُ نَقْلِ الْحُكْمِ مِنْ شَبَهٍ إِلَى شَبَهٍ))[٢]. وقال في موضع آخر: ((وَفِي ضرب الأمثال من تقرير المقصود مالا يَخْفَى إِذِ الْغَرَضُ مِنَ الْمَثَلِ تَشْبِيهُ الْخَفِيِّ بِالْجَلِيِّ وَالشَّاهِدِ بِالْغَائِبِ فَالْمُرَغَّبُ فِي الْإِيمَانِ مَثَلًا إِذَا مُثِّلَ لَهُ بِالنُّورِ تَأَكَّدَ فِي قَلْبِهِ الْمَقْصُودُ وَالْمُزَهَّدُ فِي الْكُفْرِ إِذَا مُثِّلَ لَهُ بِالظُّلْمَةِ تَأَكَّدَ قُبْحُهُ فِي نَفْسِهِ وَفِيهِ أَيْضًا تَبْكِيتُ الْخَصْمِ.،....، وَلَمَّا كَانَ الْمَثَلُ السَّائِرُ فِيهِ غَرَابَةٌ اسْتُعِيرَ لَفْظُ الْمَثَلِ لِلْحَالِ أَوِ الصِّفَةِ أَوِ الْقِصَّةِ إِذَا كَانَ لَهَا شَأْنٌ وَفِيهَا غَرَابَةٌ))[٣]. ونقل الفيروزابادي ما يشير إلى مكانة الأمثال في النص القرآني، وهو قولهم: ((الأَمثال سُرج القرآن))[٤].

٨. ومن معالم الابتكار اللغوي في النص القرآنيّ –عند الطاهر بن عاشور– أن هذا النص الكريم لم يُبْنَ على منهجٍ واحدٍ، وإنّما كان لكل سورة فيه أسلوبها الخاص بها ولهجتها الخاصة التي تناسب موضوع السورة ومضمونها نفسيًا وفكريًا، قال ((لَمْ يَلْتَزِمِ القرآن أُسْلُوبًا وَاحِدًا، وَاخْتَلَفَتْ سُوَرُهُ وَتَفَنَّنَتْ، فَتَكَادُ تَكُونُ لِكُلِّ سُورَةٍ لَهْجَةٌ خَاصَّةٌ، فَإِنَّ بَعْضَهَا بُنِيَ عَلَى فَوَاصِلَ وَبَعْضَهَا لَيْسَ كَذَلِكَ. وَكَذَلِكَ فَوَاتِحُهَا مِنْهَا مَا افْتُتِحَ بِالِاحْتِفَالِ كَالْحَمْدِ، وَيَا ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البَقَرَة: ١٠٤]، و﴿الم ذلِكَ الْكِتابُ﴾ [البَقَرَة: ١، ٢]، وَهِيَ قَرِيبٌ مِمَّا نُعَبِّرُ عَنْهُ فِي صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ بِالْمُقَدِّمَاتِ. وَمِنْهَا مَا افْتُتِحَ بِالْهُجُومِ عَلَى الْغَرَضِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ نَحْوَ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُم﴾[مُحَمَّد: ١] ﴿وبَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التَّوْبَة: ١])). وهذا التفننُ في الأسلوب مما أشار إليه الزركشي؛ فقد أرجع سببَ اختلافِ أساليب السورِ إلى اختلاف الغاية والمضمونِ لكل منها، والى: ((أَنَّ كُلَّ سُورَةٍ نَمَطٌ مُسْتَقِلٌّ فَسُورَةُ يُوسُفَ تُتَرْجِمُ عَنْ قِصَّتِهِ وَسُورَةُ بَرَاءَةَ تُتَرْجِمُ عَنْ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَكَامِنِ أَسْرَارِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا كَانَتِ الْكُتُبُ السَّالِفَةُ كَذَلِكَ؟ قُلْتُ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُعْجِزَاتٍ مِنْ نَاحِيَةِ النَّظْمِ وَالتَّرْتِيبِ وَالْآخَرُ أَنَّهَا لَمْ تُيَسَّرْ لِلْحِفْظِ))[٥]. ولعلَّ البيضاويَّ كان يلمّح إلى ذلك في قوله: ((ومن ((ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع))[٦]. ومثله ما نجده عند أبي حيان الأندلسي؛ إذ قال: ((وَفِيهِ عَادَةُ التَّفَنُّنِ فِي الْكَلَامِ وَهُوَ مِمَّا يحسن إذا لَا يَبْقَى عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ))[٧]. وقال النسفي عن هذا المنحى: ((والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند

١ الكشاف ١/ ١١١.

٢ البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١٧.

٣ نفسه ١/ ٤٨٨، وينظر عن التشبيه والتمثيل في القرآن الكريم في: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ٢/ ٢٠٥.

٤ بصائر ذوي التمييز: ١/ ٦٩.

٥ البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٦٥.

٦ أنوار التنزيل: ١/ ٢٩.

٧ البحر المحيط: ٧/ ٣١١-٣١٢. وينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٥٠.

السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ لاستلذاذ إصغائه وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح إلا للحذاق المهرة والعلماء النحارير))[١]. وتوقف ابن كمال باشا على هذه الظاهرة وكشف عن وظيفتها في الكلام؛ قال: ((والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغائه))[٢]. وقد التفت المحدثون إلى هذه الخصيصة، قال محمد دراز عن أسلوب القرآن: ((والأعجب أنَّه مع كونه أكثرَ الكلام افتنانًا وتنويعًا في الموضوعات، هو أكثره افتنانًا وتلوينًا في الأسلوب في الموضوع الواحد. فهو لا يستمر طويلًا على نمط واحد من التعبير، كما أنه لا يستمر طويلًا على هدف واحد من المعاني، ألا تراه كما يتنقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى يتنقل في المعنى الواحد بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، واسمية وفعلية، ومضي وحضور واستقبال وتكلم وغيبية وخطاب؛ إلى غير ذلك من طرق الأداء))[٣].

ومن المفيد هنا أنْ نذكر أنَّ الزركشي وقف وقفةً تحليليّةً حاول فيها أن يعلّلَ سببّ تنويع سور القرآن بيْن التي تعتمد الفواصل والتي لا تعتمدها، قال: ((وَإِنَّمَا لَمْ يَجِئْ عَلَى أُسْلُوبٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهُ لَا يَحْسُنُ فِي الْكَلَامِ جَمِيعًا أَنْ يَكُونَ مُسْتَمِرًّا عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّكَلُّفِ وَلِمَا فِي الطَّبْعِ مِنَ الْمَلَلِ عَلَيْهِ وَلِأَنَّ الِافْتِنَانَ فِي ضُرُوبِ الْفَصَاحَةِ أَعْلَى مِنَ الِاسْتِمْرَارِ عَلَى ضَرْبٍ وَاحِدٍ فَلِهَذَا وَرَدَتْ بَعْضُ آيِ القرآن مُتَمَاثِلَةَ الْمَقَاطِعِ وَبَعْضُهَا غير متماثل))[٤]

٩. ويرى الشيخ الطاهر أن من أهم أشكال الابتكار اللغوي القرآنيِّ ما فيه من أسلوب الإيجاز، قال: ((وَمِنْ أَبْدَعِ الْأَسَالِيبِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْإِيجَازُ وَهُوَ مُتَنَافَسُهُمْ وَغَايَةٌ تَتَبَارَى إِلَيْهَا فُصَحَاؤُهُمْ، وَقَدْ جَاءَ القرآن بِأَبْدَعِهِ إِذْ كَانَ- مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِيجَازِ الْمُبَيَّنِ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي- فِيهِ إِيجَازٌ عَظِيمٌ آخَرُ وَهُوَ صَلُوحِيَّةُ مُعْظَمِ آيَاتِهِ لِأَنْ تُؤْخَذَ مِنْهَا مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ كُلُّهَا تَصْلُحُ لَهَا الْعِبَارَةُ بِاحْتِمَالَاتٍ لَا يُنَافِيهَا اللَّفْظُ، فَبَعْضُ تِلْكَ الِاحْتِمَالَاتِ مِمَّا يُمْكِنُ اجْتِمَاعُهُ، وَبَعْضُهَا إِن كَانَ فَرْضٌ وَاحِدٌ مِنْهُ يَمْنَعُ مِنْ فَرْضٍ آخَرَ فَتَحْرِيكُ الْأَذْهَانِ إِلَيْهِ وَإِخْطَارُهُ بِهَا يَكْفِي فِي حُصُولِ الْمَقْصِدِ مِنَ التَّذْكِيرِ بِهِ لِلِامْتِثَالِ أَوِ الِانْتِهَاءِ،...، وَلَوْلَا إِيجَازُ القرآن لَكَانَ مَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْمَعَانِي فِي أَضْعَافِ مِقْدَارِ القرآن، وَأَسْرَارُ التَّنْزِيلِ وَرُمُوزُهُ فِي كُلِّ بَابٍ بَالِغَةٌ مِنَ اللُّطْفِ وَالْخَفَاءِ حَدًّا يَدِقُّ عَنْ تَفَطُّنِ الْعَالِمِ وَيَزِيدُ عَنْ تَبَصُّرِهِ، وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [فاطر: ١٤]. إِنَّكَ تَجِدُ فِي كَثِيرٍ مِنْ تَرَاكِيبِ القرآن حَذْفًا وَلَكِنَّكَ لَا تَعْثُرُ عَلَى حَذْفٍ يَخْلُو الْكَلَامُ مِنْ دَلِيلٍ عَلَيْهِ مِنْ لَفْظٍ أَوْ سِيَاقٍ، زِيَادَةً عَلَى جَمْعِهِ الْمَعَانِيَ الْكَثِيرَةَ فِي الْكَلَامِ الْقَلِيلِ))[٥]. وموضوع الإيجاز في النص القرآني مما التفت إليه علماء العربية والمفسرون وتوقفوا عنده وتدارسوه فكشفوا عن قيمته البلاغية وآثاره في دلالة النص؛ ومن ذلك إشارة الزمخشري إلى أنَّ الإيجاز من أهمِّ سمات القرآن الكريم، قال: ((إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار، كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه))[٦]. وبيَّن الفيروزابادي في حديثه عن منزلة الإيجاز في العبارة القرآنية أنَّ النصَّ القرآنيَّ وصل إلى أبلغ أنواع الإيجاز؛ قال: ((أمّا إيجاز اللفظ مع تمام المعنى فهو أَبلغ أَقسام الإيجاز. ولهذا قيل: الإعجاز فى الإيجاز نهاية إعجاز. وهذا المعنى موجود فى القرآن إمّا على سبيل الحذف، وإما على سبيل الاختصار))[٧]. وجعل الرازي الإيجاز مزية للفظ القرآني؛ قال: ((أَنَّ أَلْفَاظَ القرآن جَارِيَةٌ فِي الْأَكْثَرِ عَلَى الِاخْتِصَارِ))[٨]. وقد تحدث السيوطي عن صور الإيجاز في القرآن الكريم وقسمها أقساما، فتناول الإيجاز بالحذف وفوائده الدلالية للنص الكريم؛ قال: ((الْقِسْمُ الثَّانِي مِنْ

١ مدارك التنزيل: ١/ ٣١.

٢ تلوين الخطاب: ٣٤٧.

٣ النبأ العظيم: ١٧٨: (الهامش:١)

٤ نفسه: ١/ ٦٠. وينظر فيه: ١/ ٥٨.

٥ التحرير والتنوير ١/ ١٢١-١٢٢.

٦ الكشاف ٤/ ٦٥٥. وينظر: ومعترك الأقران: ٢/ ٤٦١.

٧ بصائر ذوي التمييز: ١/ ٦٨.

٨ مفاتيح الغيب ٧/ ٩٠.

قِسْمَيِ الْإِيجَازِ: الْحَذْفِ وَفِيهِ فَوَائِدُ. ذِكْرُ أَسْبَابِهِ: مِنْهَا مُجَرَّدُ الِاخْتِصَارِ وَالِاحْتِرَازِ عَنِ الْعَبَثِ لِظُهُورِهِ وَمِنْهَا التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الزَّمَانَ يَتَقَاصَرُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِالْمَحْذُوفِ وَأَنَّ الِاشْتِغَالَ بِذِكْرِهِ يُفْضِي إِلَى تَفْوِيتِ الْمُهِمِّ وَهَذِهِ هِيَ فَائِدَةُ بَابِ التَّحْذِيرِ وَالْإِغْرَاءِ وَقَدِ اجْتَمَعَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ فناقة اللَّهِ تَحْذِيرٌ بِتَقْدِيرِ "ذَرُوا" و"سُقْيَاهَا" إِغْرَاءٌ بِتَقْدِيرِ "الْزَمُوا". وَمِنْهَا التَّفْخِيمُ وَالْإِعْظَامُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِبْهَامِ قَالَ حَازِمٌ فِي مِنْهَاجِ الْبُلَغَاءِ إِنَّمَا يَحْسُنُ الْحَذْفُ لِقُوَّةِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ أَوْ يُقْصَدُ بِهِ تَعْدِيدُ أَشْيَاءَ فَيَكُونُ فِي تَعْدَادِهَا طُولٌ وَسَآمَةٌ فَيُحْذَفُ وَيُكْتَفَى بِدَلَالَةِ الْحَالِ وَتُتْرَكُ النَّفْسُ تَجُولُ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُكْتَفَى بِالْحَالِ عَنْ ذِكْرِهَا قَالَ: وَلِهَذَا الْقَصْدِ يُؤْثَرُ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي يُرَادُ بِهَا التَّعَجُّبُ وَالتَّهْوِيلُ عَلَى النُّفُوسِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي وَصْفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، فَحُذِفَ الْجَوَابُ إِذْ كَانَ وَصْفُ مَا يَجِدُونَهُ وَيَلْقَوْنَهُ عِنْدَ ذَلِكَ لَا يَتَنَاهَى فَجُعِلَ الْحَذْفُ دَلِيلًا على ضيق الْكَلَامِ عَنْ وَصْفِ مَا يُشَاهِدُونَهُ وَتُرِكَتِ النُّفُوسُ تُقَدِّرُ مَا شَاءَتْهُ وَلَا تَبْلُغُ مَعَ ذَلِكَ كُنْهَ مَا هُنَالِكَ))[١]. ومن هذا يظهر جليا مدى عناية القدماء بالإيجاز في النص القرآني، ولكنهم في الوقت نفسه لم يطلقوا عليه صفة الابتكار، ولعل الذي أغناهم عنها –زيادة على عدم استعمالهم هذا المصطلح– أنهم عدّوا هذه الظاهرة من مظاهر الإعجاز وأسبابه، ومن ثمَّ، فما كان معجزًا فلاشكَّ في أنَّه مبتكر أيضًا.

١٠. ويرى الشيخ الطاهر أنَّ طريقة القرآن الكريم في الإخبار متنوعةٌ ولها غاياتٌ بعيدةٌ لا تتمثل بالظاهر منها؛ ولذا عدها من مظاهر الابتكار اللغوي الرئيسة، قال: ((وَمِنْ ذَلِكَ الْإِخْبَارُ عَنْ أَمْرٍ خَاصٍّ بِخَبَرٍ يَعُمُّهُ وَغَيْرَهُ لِتَحْصُلَ فَوَائِدُ[٢]: فَائِدَةُ الْحُكْمِ الْعَامِّ، وَفَائِدَةُ الْحُكْمِ الْخَاصِّ، وَفَائِدَةُ أَنَّ هَذَا الْمَحْكُومَ عَلَيْهِ بِالْحُكْمِ الْخَاصِّ هُوَ مِنْ جِنْسِ ذَلِكَ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ بِالْحُكْمِ الْعَامِّ. وَقَدْ تَتَبَّعْتُ أَسَالِيبَ مِنْ أَسَالِيبِ نَظْمِ الْكَلَامِ فِي القرآن فَوَجَدْتُهَا مِمَّا لَا عَهْدَ بِمِثْلِهَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكراً رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ﴾ [الطَّلَاق: ١٠] فَإِبْدَالُ (رَسُولًا) مِنْ (ذِكْرًا) يُفِيدُ أَنَّ هَذَا الذِّكْرَ ذِكْرُ هَذَا الرَّسُولِ، وَأَنَّ مَجِيءَ الرَّسُولِ هُوَ ذِكْرٌ لَهُمْ، وَأَنَّ وَصفه بقوله يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ يُفِيدُ أَنَّ الْآيَاتِ ذِكْرٌ. وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً ﴾ [الْبَيِّنَة: ١، ٢] الْآيَةَ وَلَيْسَ الْمَقَامُ بِسَامِحٍ لإيراد عديد الْأَمْثِلَة مِنْ هَذَا، وَلَعَلَّهُ يَأْتِي فِي أَثْنَاءِ التَّفْسِيرِ))[٣]. ولا شكَّ في أنَّ ذلك مما أضفى على النصِّ القرآنيِّ سمةَ التميزِ والتفردِ والحيويةِ الأسلوبيةِ إنْ جازَ التعبير.

١١. وقد عدَّ الشيخ الطاهر الإيجازَ عن طريق الحذف والتضمين مما ابتكره القرآن واحتفى به، قال: ((وَمِنْ بَدِيعِ الْإِيجَازِ فِي القرآن وَأَكْثَرِهِ مَا يُسَمَّى بِالتَّضْمِينِ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى إِيجَازِ الْحَذْفِ، وَالتَّضْمِينُ أَنْ يُضَمَّنَ الْفِعْلُ أَوِ الْوَصْفُ مَعْنَى فِعْلٍ أَوْ وَصْفٍ آخَرَ وَيُشَارُ إِلَى الْمَعْنَى الْمُضَمَّنِ بِذِكْرِ مَا هُوَ مِنْ مُتَعَلَّقَاتِهِ مِنْ حَرْفٍ أَوْ مَعْمُولٍ فَيَحْصُلُ فِي الْجُمْلَةِ مَعْنَيَانِ))[٤]. وقد بيّن الزمخشري دلالةَ التضمين وسبب استعمال القرآن له، قال: ((أي غرض في هذا التضمين؟،...، قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ))[٥]. وهو ما أكده النسفي؛ إذ قال: ((وفائدة التضمين إعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من إعطاء معنًى فذٍّ))[٦]. وذكر السيوطي أنَّ التضمين من أنواع الإيجاز، وأنَّه على نوعين؛ قال: ((انّ مِنَ الْإِيجَازِ نَوْعًا يُسَمَّى التَّضْمِينُ وَهُوَ حُصُولُ مَعْنًى فِي لَفْظٍ مِنْ غَيْرِ ذِكْرٍ لَهُ بِاسْمٍ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْهُ قَالَ وَهُوَ نَوْعَانِ: أحدهما ما يفهم من البنية كَقَوْلِهِ مَعْلُومٌ فَإِنَّهُ يُوجِبُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ عَالِمٍ وَالثَّانِي من معنى

---

١ الإتقان في علوم القرآن ٣/ ١٩٠.

٢ ينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢١٧، والإتقان في علوم القرآن ٣/ ٤٨، وفيه أيضا:٣/ ١٠٩، ومعترك الأقران ١/ ١٧٤.

٣ التحرير والتنوير ١/ ١٢٢-١٢٣.

٤ نفسه ١/ ١٢٣.

٥ الكشاف ٢/ ٧١٧.

٦ مدارك التنزيل ٢/ ٢٩٨.

العبارة كبسم اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَإِنَّهُ تَضَمَّنَ تَعْلِيمَ الِاسْتِفْتَاحِ فِي الْأُمُورِ بِاسْمِهِ عَلَى جِهَةِ التَّعْظِيمِ لِلَّهِ تَعَالَى وَالتَّبَرُّكِ بِاسْمِهِ))[١].

١٢. ومما عدَّه الشيخ الطاهر من صور الابتكار اللغوي في الخطاب القرآني ما جاء فيه من جمل جارية مجرى المثل في السيرورة وقوة الدلالة والسهولة، قال: ((وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْجُمَلِ الْجَارِيَةِ مَجْرَى الْأَمْثَالِ، وَهَذَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْبَلَاغَةِ نَادِرٌ فِي كَلَامِ بُلَغَاءِ الْعَرَبِ، وَهُوَ الَّذِي لِأَجْلِهِ عُدَّتْ قَصِيدَةُ زُهَيْرٍ فِي «الْمُعَلَّقَاتِ» فَجَاءَ فِي القرآن مَا يَفُوقُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ [الإسراء: ٨٤] وَقَوْلِهِ: ﴿ طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣] وَقَوْلِهِ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[المؤمنون: ٩٦]))[٢]. وقد أشار المفسرون[٣] إلى كثيرٍ من هذه الجمل الجارية مجرى المثل كما في كلامهم على قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص٢٦]، وقد خصص الثعالبي فصلا ذكر فيه طائفة من الجمل التي تجري مجرى المثل في القرآن الكريم تجمع في دلالتها ((الإعجاب، والإعجاز، والإيجاز))[٤]. ومنها قوله تعالى:﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] وقوله تعالى:﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]. ويرى السيوطي أن هذه الجمل الجارية مجرى المثل والحكمة من مظاهر إعجاز القرآن، قال: ((وَمِنْهَا الْحِكَمُ الْبَالِغَةُ الَّتِي لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِأَنْ تَصْدُرَ فِي كَثْرَتِهَا وَشَرَفِهَا مِنْ آدَمِيٍّ))[٥]. كما ذكر السيوطي في النوع السادس والستين الموسوم بأمثال القرآن فائدةً جمع فيها عددًا من الجمل الواردة في القرآن مما جرى مجرى المثل ونَقَلَ عن بعض العلماء أنَّ هذا الاستعمال هو نوع بديعيٌّ يُسَمى: إرسال المثل[٦].

١٣. أشار الشيخ الطاهر إلى أنَّ القرآن الكريم سَلَكَ مَسلكًا فريدًا في استعمال الإطناب، قال: ((وَسَلَكَ الْقرآن مَسْلَكَ الْإِطْنَابِ لِأَغْرَاضٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَمِنْ أَهَمِّ مَقَامَاتِ الْإِطْنَابِ مَقَامُ تَوْصِيفِ الْأَحْوَالِ الَّتِي يُرَادُ بِتَفْصِيلِ وَصْفِهَا إِدْخَالُ الرَّوْعِ فِي قَلْبِ السَّامِعِ وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ عَرَبِيَّةٌ فِي مِثْلِ هَذَا،...، فَمِنْ آيَاتِ القرآن فِي مِثْلِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ وَقِيلَ مَنْ راقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٦- ٢٩] وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤] وَقَوْلُهُ: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]))[٧]. ومن إشارات القدماء إلى إلى ذلك ما جاء في قولِ السيوطيِّ عن الإيجاز والإطناب: ((اعْلَمْ أَنَّهُمَا مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ حَتَّى نَقَلَ صَاحِبُ سِرِّ الْفَصَاحَةِ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: البلاغة هِيَ الْإِيجَازُ وَالْإِطْنَابُ. قَالَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ: كَمَا أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْبَلِيغِ فِي مَظَانِّ الْإِجْمَالِ أَنْ يُجْمِلَ وَيُوجِزَ فَكَذَلِكَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ فِي مَوَارِدِ التَّفْصِيلِ أَنْ يُفَصِّلَ وَيُشْبِعَ))[٨]. وقال أيضا: ((من وجوه إعجازه (إيجازه في آية وإطنابه في أخرى) وهما من أعظم أنواع البلاغة،...، وفسروا الإيجاز بأداء المقصود بأقل من عبارة المتعارف. والإطناب أداؤه بأكثر منها لكون المقام حقيقاً بالبسط))[٩]. وجاء في تفسير المنار في هذا السياق: ((وَهُوَ مُعْجِزٌ فِي إِطْنَابِهِ كَإِيجَازِهِ، لَا لَغْوَ فِيهِ وَلَا حَشْوَ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ فِيهِ مَقَالٌ يَنْطَبِقُ عَلَى الْحِكْمَةِ، وَيُعِينُ عَلَى التَّدَبُّرِ وَالتَّذَكُّرِ))[١٠].

---

١ الإتقان في علوم القرآن ٣/ ١٨٩، ومعترك الأقران ١/ ٢٣٠.

٢ التحرير والتنوير ١/ ١٢٣.

٣ ينظر: مدارك التنزيل: ٢/ ٦٣٨، والبحر المحيط: ٨/ ٢٩٩، وحاشية الشهاب =عناية القاضي: ٧/ ٧٠.

٤ الإعجاز والإيجاز: ١٩.

٥ الجامع لأحكام القرآن ١/ ٧٥.

٦ ينظر: الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٥٠، ومعترك الأقران: ١/ ٣٥٦.

٧ التحرير والتنوير ١/ ١٢٣.

٨ الإتقان في علوم القرآن ٣/ ١٧٩.

٩ معترك الأقران: ١/ ٢٢٢.

١٠ تفسير المنار ٢/ ٣٥٧.

١٤. ويرى الشيخ الطاهر أنَّ القرآنَ الكريمَ ابتكر أسلوبًا جديدًا في استعمال اللفظ، انفرد به من غيره من الكلام؛ فقد يرد اللفظ الواحد–في القرآن الكريم– في سياقٍ واحدٍ ليفيدَ دلالاتٍ عدة محتملة لا يرفضها السياقُ أو القرائنُ مما يدلُ على إعجازِ النصِّ الذي اشتملَ على مِثْلِ هذا الاستعمالِ من غيرِ تَعارضٍ، وقد أشار إليه بقوله: ((وَمِنْ أَسَالِيبِ الْقرآن الْمُنْفَرِدِ بِهَا الَّتِي أَغْفَلَ الْمُفَسِّرُونَ اعْتِبَارَهَا أَنَّهُ يَرِدُ فِيهِ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْنِ أَوْ مَعَانٍ إِذَا صَلُحَ الْمَقَامُ بِحَسَبِ اللُّغَة الْعَرَبِيَّة لِإِرَادَة مَا يَصْلُحُ مِنْهَا، وَاسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيِّ وَالْمَجَازِيِّ إِذَا صَلُحَ الْمَقَامُ لِإِرَادَتِهِمَا، وَبِذَلِكَ تَكْثُرُ مَعَانِي الْكَلَامِ مَعَ الْإِيجَازِ وَهَذَا مِنْ آثَارِ كَوْنِهِ مُعْجِزَةً خَارِقَةً لِعَادَةِ كَلَامِ الْبَشَرِ وَدَالَّةً عَلَى أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنِ الْعَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَالْقَدِيرِ عَلَيْهِ. وَقَدْ نَبَّهْنَا عَلَى ذَلِكَ وَحَقَّقْنَاهُ فِي الْمُقَدِّمَةِ التَّاسِعَةِ))[١]. وقد عالج هذا الموضوع الراغبُ الأصفهانيُّ في الفصلِ الموسوم بـ: (جواز إرادة المعنيين المختلفين بعبارة واحدة)، اشترط فيه ألا يتنافى المعنيان المحتملان للعبارة، قال: ((العبارة الموضوعة لمعنيين على سبيل الاشتراك حقيقة فيهما أو مجازاً في أحدهما؟ متى تنافي معناهما في المراد لم يصح أن يرادا معاً بعبارة واحدة))[٢]. وقد درسَ العلماءُ الألفاظَ التي تدلُّ على معنيين أو أكثرَ تحت تحت أسماء مختلفة مثل المتشابه والظاهر والمؤول والمُشْكِل والتعريض والأشباه والنظائر، قال الزركشيُّ: ((وَأَمَّا الْمُتَشَابِهُ فَأَصْلُهُ أَنْ يَشْتَبِهَ اللَّفْظُ فِي الظَّاهِرِ مَعَ اخْتِلَافِ الْمَعَانِي،...، وَيُقَالُ لِلْغَامِضِ: مُتَشَابِهٌ لِأَنَّ جِهَةَ الشَّبَهِ فِيهِ كَمَا تَقُولُ لِحُرُوفِ التَّهَجِّي وَالْمُتَشَابِهُ مِثْلُ الْمُشْكِلِ لِأَنَّهُ أَشْكَلَ أَيْ دَخَلَ فِي شَكْلِ غَيْرِهِ وَشَاكَلَهُ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَقِيلَ: هُوَ الْمُشْتَبَهُ الَّذِي يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا،...، وَقِيلَ: مَا يَحْتَمِلُ وُجُوهًا))[٣]. وقال في موضع آخر: ((وَقَدْ يَكُونُ اللَّفْظُ مُحْتَمِلًا لِمَعْنَيَيْنِ وَهُوَ فِي أَحَدِهِمَا أَظْهَرُ فَيُسَمَّى الرَّاجِحَ ظَاهِرًا وَالْمَرْجُوحَ مُؤَوَّلًا))[٤]. وخصص فصلا للعلاقة بين اللفظ والدلالة من حيث الإفراد والتعدد؛ قال: ((فَصْلٌ في اشتراك اللفظ بين حقيقتين أو حقيقة ومجاز قَدْ يَكُونُ اللَّفْظُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ أَوْ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ وَيَصِحُّ حَمْلُهُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا،...، فَعَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا اللَّفْظِ كِلَا الْمَعْنَيَيْنِ عَلَى الْقَوْلَيْنِ أَمَّا إِذَا قُلْنَا بِجَوَازِ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ فَظَاهِرٌ وَأَمَّا إِذَا قُلْنَا بِالْمَنْعِ فَبِأَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ قَدْ خُوطِبَ بِهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّةً أُرِيدَ هَذَا وَمَرَّةً هَذَا وَقَدْ جَاءَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَرَى لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا كَثِيرَةً" رواه أحمد أي اللَّفْظَ الْوَاحِدَ يَحْتَمِلُ مَعَانِيَ مُتَعَدِّدَةً وَلَا يَقْتَصِرُ به على ذلك المعنى بل يعلم أنه يصلح لهذا ولهذا وقال ابن القشيري في مقدمة تفسيره: مالا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدًا حُمِلَ عَلَيْهِ وَمَا احتمل معنيين فصاعدا بأن وضع الأشياء مُتَمَاثِلَةٍ كَالسَّوَادِ حُمِلَ عَلَى الْجِنْسِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَإِنْ وُضِعَ لِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ فَإِنْ ظَهَرَ أَحَدُ الْمَعْنَيَيْنِ حُمِلَ عَلَى الظَّاهِرِ إِلَّا أَنْ يَقُومَ الدليل وإن استويا سواء كان الاستعمال فيهما حقيقة أو مجازا أو في أحدهما حقيقة وَفِي الْآخَرِ مَجَازًا كَلَفْظِ الْعَيْنِ وَالْقُرْءِ وَاللَّمْسِ فَإِنْ تَنَافَى الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُجْمَلٌ فَيُطْلَبُ الْبَيَانُ مِنْ غَيْرِهِ وَإِنْ لَمْ يَتَنَافَ فَقَدْ مَالَ قَوْمٌ إِلَى الْحَمْلِ عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ وَالْوَجْهُ التَّوَقُّفُ فِيهِ لِأَنَّهُ مَا وُضِعَ لِلْجَمِيعِ بَلْ وُضِعَ لِآحَادٍ مُسَمَّيَاتٍ عَلَى الْبَدَلِ وَادِّعَاءُ إِشْعَارِهِ بِالْجَمِيعِ بَعِيدٌ نَعَمْ يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ جَمِيعَ الْمَحَامِلِ وَلَا يَسْتَحِيلُ ذَلِكَ عَقْلًا وَفِي مِثْلِ هَذَا يُقَالُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ كَذَا وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كَذَا))[٥]. وقد التفت بعض القدماء إلى ذلك منهم الزمخشري؛ إذ قال: ((لأنّ اللفظ الواحد لا يصحّ استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين))[٦]. وقال القرطبي: ((وَإِذَا احْتَمَلَ اللَّفْظُ الْحَقِيقَةَ وَالْمَجَازَ فَالْأَصْلُ الْحَقِيقَةُ الْحَقِيقَةُ حَتَّى يَرِدَ دَلِيلٌ يُزِيلُهَا))[٧]. ومنهم الماوردي الذي قال: ((فإنه ينقسم قسمين: أحدهما: أن يكون مشتملاً على معنى

---

١ التحرير والتنوير ١/ ١٢٣.

٢ تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٠.

٣ البرهان في علوم القرآن ٢/ ٦٩–٧٠.

٤ نفسه ٢/ ٢٠٥.

٥ نفسه ٢/ ٢٠٨.

٦ الكشاف ٣/ ١٤٩.

٧ الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٣٣٠.

معنى واحد لا يتعداه، ومقصوراً عليه ولا يحتمل ما سواه،،...، والقسم الثاني: أن يكون اللفظ محتملاً لمعنيين أو أكثر، وهذا على ضربين: أحدهما: أن يكون أحد المعنيين ظاهراً جليًّا، والآخر باطناً خفيّاً، فيكون محمولاً على الظاهر الجلي دون الباطن الخفي، إلا أن يقوم الدليل على أن الجليَّ غيرُ مُرَادٍ، فيحمل على الخفي. والضرب الثاني: أن يكون المعنيان جليَّين، واللفظ مستعملاً فيهما حقيقةً))[١].

١٥. ومن الابتكار اللغوي في أساليب القرآن طريقة استعمال بعض الألفاظ التي يمكن أن تلفظ على أنحاء مختلفة فتؤدي إلى دلالات مختلفة ومحتملة لا يرفضها السياق، وقد بين الشيخ الطاهر ان هذا غالبا ما يكون في القراءات القرآنية؛ إذ قرئت اللفظة القرآنية قراءات عدة باختلاف حرف أو حركة وفي كل منها دلالة جديدة يكتسب النص منها معنى جديدا كاشفا، وهذا ما بينه بقوله: ((وَمِن أَسَالِيبِهِ الْإِتْيَانُ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي تَخْتَلِفُ مَعَانِيهَا بِاخْتِلَافِ حُرُوفِهَا أَوِ اخْتِلَافِ حَرَكَاتِ حُرُوفِهَا وَهُوَ مِنْ أَسْبَابِ اخْتِلَافِ كَثِيرٍ مِنَ الْقِرَاءَاتِ مِثْلَ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾[الزخرف: ١٩] قرئ (عِنْدَ) بِالنُّونِ دون ألف وقرئ (عِبَادُ) بِالْمُوَحَّدَةِ وَأَلِفٍ بَعْدَهَا، وَمِثْلَ: ﴿إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[الزخرف: ٥٧] بِضَمِّ الصَّادِ وَكَسْرِهَا. وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى ذَلِكَ فِي الْمُقَدِّمَةِ السَّادِسَةِ))[٢]. وقد أشار المفسرون وعلماء القراءات إلى ما تضفيه تلك القراءات من معان ودلالات، ومن ذلك ما نجده عند القرطبي في تفسير قوله تعالى:﴿ مالك يوم الدين﴾[الفاتحة٤]: ((اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ أَيُّمَا أَبْلَغُ: مَلِكٌ أَوْ مَالِكٌ؟ وَالْقِرَاءَتَانِ مَرْوِيَّتَانِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. ذَكَرَهُمَا التِّرْمِذِيُّ، فَقِيلَ:" مَلِكٌ" أَعَمُّ وَأَبْلَغُ مِنْ" مالِكٌ" إِذْ كُلُّ مَلِكٍ مَالِكٌ، وَلَيْسَ كُلُّ مَالِكٍ مَلِكًا، وَلِأَنَّ أمر الْمَلِكَ نَافِذٌ عَلَى الْمَالِكِ فِي مُلْكِهِ، حَتَّى لَا يَتَصَرَّفَ إِلَّا عَنْ تَدْبِيرِ الْمَلِكِ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْمُبَرِّدُ. وَقِيلَ:" مالِكٌ" أَبْلَغُ، لِأَنَّهُ يَكُونُ مَالِكًا لِلنَّاسِ وَغَيْرِهِمْ، فَالْمَالِكُ أَبْلَغُ تَصَرُّفًا وَأَعْظَمُ، إِذْ إِلَيْهِ إِجْرَاءُ قَوَانِينِ الشَّرْعِ، ثُمَّ عِنْدَهُ زِيَادَةُ التَّمَلُّكِ))[٣]. وقد أشار أبو زهرة إلى شيء من ذلك، قال: ((وهناك أمر... في تنوع القراءات، وهو أن يكون مجموع القراءتين –وكلتاهما قرآن– دالًّا على معنيين في لفظ واحد، متلاقيين غير متضادين،...، فالقراءتان والكلمة واحدة تدلان بالنص على معنيين غير متضادين، وكلاهما صحيح صادق))[٤]. وقد توقف القدماء على اثر اختلاف القراءات القرآنية في المعنى[٥].

١٦. ومن الابتكار اللغوي للنص القرآني ما يمتاز به أسلوبه من جزالة في موضعها، واستعمال الرقة في موضعها، قال: ((وَاعْلَمْ أَنَّ مِمَّا يَنْدَرِجُ تَحْتَ جِهَةِ الْأُسْلُوبِ مَا سَمَّاهُ أَيِمَّةُ نَقْدِ الْأَدَبِ بِالْجَزَالَةِ، وَمَا سَمَّوْهُ بِالرِّقَّةِ وَبَيَّنُوا لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَقَامَاتِهِ وَهُمَا رَاجِعَتَانِ إِلَى مَعَانِي الْكَلَامِ، وَلَا تَخْلُو سُورَةٌ مِنَ القرآن مِنْ تَكَرُّرِ هَذَيْنِ الْأُسْلُوبَيْنِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا بَالِغٌ غَايَتَهُ فِي مَوْقِعِهِ، فَبَيْنَمَا تَسْمَعُهُ يَقُولُ: قُلْ يَا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [الزمر: ٥٣] وَيَقُولُ:﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً ﴾[النِّسَاء: ٢٨] إِذْ تَسْمَعُهُ يَقُولُ:﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] قَالَ عِيَاض فِي «الشِّفَاء»: إِنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ لَمَّا سَمِعَ هَذِهِ الْآيَةَ أَمْسَكَ بِيَدِهِ عَلَى فَمِ النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ: نَاشَدْتُكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ إِلَّا مَا كَفَفْتَ))[٦]. وقد أشار الباقلاني إلى ذلك، قال: ((وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ أَجْنَاسَ الْكَلَامِ مُخْتَلِفَةٌ وَمَرَاتِبَهَا فِي دَرَجَةِ الْبَيَانِ مُتَفَاوِتَةٌ ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فَمِنْهَا الْبَلِيغُ الرَّصِينُ الْجَزْلُ وَمِنْهَا الْفَصِيح الْقَرِيبُ السَّهْلُ وَمِنْهَا الْجَائِزُ الطَّلْقُ الرَّسْلُ وَهَذِهِ أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ أَعْلَاهُ وَالثَّانِي أَوْسَطُهُ وَالثَّالِثُ أَدْنَاهُ وَأَقْرَبُهُ فَحَازَتْ بَلَاغَاتُ القرآن مِنْ كُلِّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ حِصَّةً وَأَخَذَتْ مَنْ كُلِّ نَوْعٍ شُعْبَةً

---

١ تفسير الماوردي = النكت والعيون ١/ ٣٨.٣٩.

٢ التحرير والتنوير ١/ ١٢٣–١٢٤.

٣ الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٤٠، وينظر:المحرر الوجيز ١/ ٦٩، ومدارك التنزيل ١/ ٣٠، والدر المصون ١/ ٤٨.

٤ المعجزة الكبرى القرآن: ٤٢.

٥ ينظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية:١٣٧–٢٥٥. والكتاب غرضه بيان ذلك.

٦ التحرير والتنوير ١/ ١٢٤.

فَانْتَظَمَ لَهَا بِامْتِزَاجِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ نَمَطٌ مِنَ الْكَلَامِ يَجْمَعُ صِفَتَيِ الْفَخَامَةِ وَالْعُذُوبَةِ وَهُمَا عَلَى الِانْفِرَادِ فِي نُعُوتِهِمَا كَالْمُتَضَادَّيْنِ لِأَنَّ العذوبة نتاج السهولة والجزالة والمتانة في الكلام يُعَالِجَانِ نَوْعًا مِنَ الْوُعُورَةِ فَكَانَ اجْتِمَاعُ الْأَمْرَيْنِ فِي نَظْمِهِ مَعَ نُبُوِّ كُلٍّ مِنْهُمَا عَنِ الآخر فضيلة خص بها القرآن يسرها الله بلطيف قدرته ليكون آية بينة لنبيه ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه))[١]. وقد نبّه الزركشيُّ على هذه الخصوصية للأسلوب القرآني، قال: ((وَمِنْهَا جَمْعُهُ بَيْنَ صِفَتَيِ الْجَزَالَةِ وَالْعُذُوبَةِ وَهُمَا كَالْمُتَضَادَّيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ غَالِبًا فِي كَلَامِ الْبَشَرِ لِأَنَّ الْجَزَالَةَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَا تُوجَدُ إِلَّا بِمَا يَشُوبُهَا مِنَ الْقُوَّةِ وَبَعْضِ الْوُعُورَةِ وَالْعُذُوبَةَ مِنْهَا مَا يُضَادُّهَا مِنَ السَّلَاسَةِ وَالسُّهُولَةِ فَمَنْ نَحَا نَحْوَ الصُّورَةِ الْأُولَى فَإِنَّمَا يَقْصِدُ الْفَخَامَةَ وَالرَّوْعَةَ فِي الْأَسْمَاعِ مِثْلُ الْفُصَحَاءِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَفُحُولِ الشُّعَرَاءِ مِنْهُمْ وَمَنْ نَحَا نَحْوَ الثَّانِيَةِ قَصَدَ كَوْنَ الْكَلَامِ فِي السَّمَاعِ أَعْذَبَ وَأَشْهَى وَأَلَذَّ مِثْلُ أَشْعَارِ الْمُخَضْرَمِينَ وَمَنْ دَانَاهُمْ مِنَ الْمُوَلِّدِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَتَرَى أَلْفَاظَ القرآن قَدْ جَمَعَتْ فِي نَظْمِهِ كِلْتَا الصِّفَتَيْنِ وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ وُجُوهِ الْبَلَاغَةِ وَالْإِعْجَازِ))[٢]. وقد عدّ القرطبي الجزالة أحد وجوه الإعجاز، قال: ((وَمِنْهَا: الْجَزَالَةُ الَّتِي لَا تَصِحُّ مِنْ مَخْلُوقٍ بِحَالٍ، وَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ﴿ق وَالقرآن الْمَجِيدِ ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ:﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ:﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. قَالَ ابْنُ الْحَصَّارِ: فَمَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْحَقُّ، عَلِمَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجَزَالَةِ لَا تَصِحُّ في خطاب غيره، لا يَصِحُّ مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ الدُّنْيَا أَنْ يَقُولَ: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وَلَا أَنْ يَقُولَ: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ ﴾))[٣]. وقال في موضع آخر: ((إِنَّ القرآن لَمَّا كَانَ فِي غَايَةِ الْجَزَالَةِ وَالْبَلَاغَةِ، فَكَانُوا إِذَا رأوا عجز هم عَنْ مُعَارَضَتِهِ، اقْشَعَرَّتِ الْجُلُودُ مِنْهُ إِعْظَامًا لَهُ، وَتَعَجُّبًا مِنْ حُسْنِ تَرْصِيعِهِ وَتَهَيُّبًا لِمَا فِيهِ))[٤].

إنَّ في هذه الإشارات التي نجدها عند علماء القرآن من القدماء– في هذا الموضع والمواضع السابقة– ما يدل على التفاتهم إلى هذه الأساليب التعبيرية التي عدها الطاهر ابتكارًا لغويًا، ويدل أيضًا على تنبيههم على قيمتها الفنية واللغوية والدلالية ومكانتها في اتصاف النص القرآني بصفة الإعجاز. ولا شك في أنَّ الشيخ الطاهر اطلع على هذه الآراء الخاصة بالإعجاز القرآني فتبناها، ولكنه عبَّر عنها بصفة الابتكار، ليؤكد بذلك قضية الإعجاز اللغوي للقران الكريم، وليكون الابتكار اللغوي احد مظاهر الإعجاز ومصادره.

١٧. ويرى الشيخ الطاهر أنَّ البناء الموسيقي للنص القرآني من معالم الابتكار اللغوي فيه، إذ يجد أنَّ بناءه بناءٌ لغوي مبتكر قائم على أسلوب الفواصل المتماثلة في الإسماع على الرغم من عدم تماثلها في الحروف، والغاية من ذلك البناء –عنده– أنّه يؤدي إلى تناسقٍ موسيقيٍّ يُساعد الذاكرةَ الإنسانيةَ على حفظه، كما يُسهم ذلك في إمكانية البقاء في تلك البيئة الشفهية، قال: ((وَكَانَ لِفَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وَتَنَاسُبِهَا فِي تَرَاكِيبِهِ وَتَرْتِيبِهِ عَلَى ابْتِكَارِ أُسْلُوبِ الْفَوَاصِلِ الْعَجِيبَةِ الْمُتَمَاثِلَةِ فِي الْأَسْمَاعِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُتَمَاثِلَةَ الْحُرُوفِ فِي الْأَسْجَاعِ، كَانَ لِذَلِكَ سَرِيعَ الْعُلُوقِ بِالْحَوَافِظِ خَفِيفَ الِانْتِقَالِ وَالسَّيْرِ فِي الْقَبَائِلِ، مَعَ كَوْنِ مَادَّتِهِ وَلُحْمَتِهِ هِيَ الْحَقِيقَةَ دُونَ الْمُبَالَغَاتِ الْكَاذِبَةِ وَالْمُفَاخَرَاتِ الْمَزْعُومَةِ، فَكَانَ بِذَلِكَ لَهُ صَوْلَةُ الْحَقِّ وَرَوْعَةٌ لِسَامِعِيهِ، وَذَلِكَ تَأْثِيرٌ رُوحَانِيٌّ وَلَيْسَ بِلَفْظِيٍّ وَلَا مَعْنَوِيٍّ))[٥].

<u>القسم الثاني</u>: جاء هذا القسم مبثوثا في صفحات تفسيره: (التحرير والتنوير)، وليس مجموعا كما هو شأن القسم الأول، ومادة القسم الثاني تختلف عن مادة القسم الأول؛ فمادة القسم الثاني هي مجموعة من الآيات التي ذَكَرَ الشيخُ الطاهرُ في تفسيرها: أنَّ فيها مُبتكرًا لغويًا، وقد جَمَعْنا هذه المواضعَ في هذا القسم، لأنّها أمثلةٌ جزئيةٌ وليست قواعدَ نظريةً جامعةً أو

١ إعجاز القرآن للباقلاني: ١٤–١٥.ونقله الزركشي في: البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠٢، والسيوطي في: الإتقان في علوم القرآن ٤/ ١٤.
٢ البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠٧، ونقله السيوطي في: الإتقان في علوم القرآن ٤/ ١٧.
٣ الجامع لأحكام القرآن ١/ ٧٣.
٤ نفسه ١٥/ ٢٥٠.
٥ التحرير والتنوير ١/ ١١٩.

ضوابطَ كُلّيّة ناظمة، كما هي الحال مع مادة القسم الأول. وفي ما يأتي الألفاظ والتراكيب التي وصفها الطاهر بالابتكار، مما وقفنا عليه في تفسير التحرير والتنوير، وقد صرّح الشيخ الطاهر بأنّ فيها ابتكارًا لغويًا:

الْآيَةُ: عرفها الطاهر بن عاشور بأنها: ((مِقْدَارٌ مِنَ القرآن مُرَكَّبٌ وَلَوْ تَقْدِيرًا أَوْ إِلْحَاقًا، فَقَوْلِي وَلَوْ تَقْدِيرًا لِإِدْخَالِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُدْهامَّتانِ﴾ [الرَّحمَن: ٦٤] إِذِ التَّقْدِيرُ هُمَا مُدْهَامَّتَانِ، وَنَحْو: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر:١] إِذِ التَّقْدِيرُ أُقْسِمُ بِالْفَجْرِ.... أَوْ إِلْحَاقًا: لِإِدْخَالِ بَعْضِ فَوَاتِحِ السُّوَرِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ عُدَّ أَكْثَرُهَا فِي الْمَصَاحِفِ آيَاتٌ مَا عَدَا:الر، وَالمر، وَطس، وَذَلِكَ أَمْرٌ تَوْقِيفِيٌّ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ وَلَا يَظْهَرُ فَرْقٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا))[١]. ثم نصَّ بعد ذلك بأنَّ مصطلح الآية مما ابتكره القرآن الكريم، قال: ((وَتَسْمِيَةُ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ آيَاتٌ هُوَ مِنْ **مُبْتَكَرَاتِ** القرآن))[٢]، ولفظ (الآية) ورد في النص الكرم كما في قوله تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ﴾ [آل عمران: ٧] وَقَالَ:﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، وعلل الطاهر سبب تسميتها بأنها إِنَّمَا سُمِّيَتْ (آيَةً) ((لِأَنَّهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مُوحًى بِهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى مَا هُوَ مِنَ الْحَدِّ الْأَعْلَى فِي بَلَاغَةِ نَظْمِ الْكَلَامِ، وَلِأَنَّهَا لِوُقُوعِهَا مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ جُعِلَتْ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ القرآن مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَلَيْسَ مِنْ تَأْلِيفِ الْبَشَرِ إِذْ قد تحدّى النَّبِي بِهِ أَهْلَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَعَجَزُوا عَنْ تَأْلِيفِ مِثْلِ سُورَةٍ مِنْ سُوَرِهِ))[٣]. وبناءً على كون التسمية من ابتكار القرآن فهو يقرر أنه ((لَا يَحِقُّ لِجُمَلِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ أَنْ تُسَمَّى آيَاتٍ إِذْ لَيْسَتْ فِيهَا هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةُ فِي اللُّغَةِ الْعِبْرَانِيَّةِ وَالْآرَامِيَّةِ))[٤].

صِبْغَةَ اللَّهِ: بيّن الشيخ الطاهر في تفسير قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[البقرة١٣٨] أن أصل الصبغة هو الاغتسال بماء نهر في الأردن وهو سنة بدأها يحيى عليه السلام واتبعها النصارى رمزا للتطهر الروحاني[٥]، وكانوا يسمونها بـ (المعموذيت)، وَقد كَانَ عِيسَى يعمد الْحَوَارِيِّينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، فَتُقُرِّرَ فِي سُنَّةِ النَّصَارَى تَعْمِيدَ مَنْ يَدْخُلُ فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ كَبِيرًا، أَمَّا مَنْ يُولَدُ لِلنَّصَارَى فَيُعَمِّدُونَهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ وِلَادَتِهِ، وقد عرّب العرب هذا اللفظ فقالوا: (المعمودية)[٦]. ثم ذهب إلى احتمالين في تأصيل استعمال الصبغة، في القرآن، بمعنى المعمودية، الأول أنها من ابتكار القرآن الكريم، والاحتمال الثاني ان يكون هذا الاستعمال مما ابتدعه نصارى العرب في الجاهلية، قال: ((وإِطْلَاقُ اسْمِ الصِّبْغَةِ عَلَى الْمَعْمُودِيَّةِ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَصَارَى الْعَرَبِ سَمُّوا ذَلِكَ الْغَسْلَ صِبْغَةً، وَلَمْ أَقِفْ عَلَى مَا يُثْبِتُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَظَاهِرُ كَلَامِ الرَّاغِبِ أَنَّهُ إِطْلَاقٌ قَدِيمٌ عِنْدَ النَّصَارَى إِذْ قَالَ: «وَكَانَتِ النَّصَارَى إِذَا وُلِدَ لَهُمْ وَلَدٌ غَمَسُوهُ بَعْدَ السَّابِعِ فِي مَاءٍ مَعْمُودِيَّةٍ يَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ صِبْغَةً لَهُمْ»))[٧]. ويرى أن وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْمَعْمُودِيَّةِ (صِبْغَةً) خَفِيٌّ السبب لان مَاءَ الْمَعْمُودِيَّةِ لا لَوْن له فَيُطْلَق عَلَى التَّلَطُّخِ بِهِ. ومن ثم راح يقرر ((إِطْلَاقُ الصِّبْغَةِ عَلَى مَاءِ الْمَعْمُودِيَّةِ أَوْ عَلَى الِاغْتِسَالِ بِهِ اسْتِعَارَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَشْبِيهٍ وَجْهُهُ تَخْيِيلِيٌّ إِذْ تَخَيَّلُوا أَنَّ التَّعْمِيدَ يُكْسِبُ الْمُعَمَّدَ بِهِ

---

١ نفسه ١/ ٧٤.

٢ نفسه ١/ ٧٤.

٣ نفسه ١/ ٧٤. وهو مما ذكره القدماء، ينظر: جامع البيان ٦/ ٣٨٤، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٣٧٩، وتفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٥٤٨، والمفردات في غريب القرآن: ١٠٣، والكشاف ١/ ٥٢٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥٧، والتبيان في إعراب القرآن ١/ ٥٦، والجامع لأحكام القرآن ١/ ٦٦، وبصائر ذوي التمييز ١/ ٨٦، والدر المصون ١/ ٣٠٨.

٤ التحرير والتنوير ١/ ٧٤.

٥ ورد هذا التفسير في: جامع البيان ٣/ ١١٧، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٢١٥، وتفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٢٥، والكشاف ١/ ١٩٦، و المحرر الوجيز ١/ ٢١٦، ومفاتيح الغيب ٤/ ٧٥، ومحاسن التأويل ١/ ٤٠٩.

٦ ينظر: التحرير والتنوير ١/ ٧٤٣. وينظر فيها: أسباب النزول: ٤١، وتفسير البغوي ١/ ١٧٣، وزاد المسير ١/ ١١٦، وأنوار التنزيل ١/ ١٠٩، ومدارك التنزيل ١/ ١٣٤، والجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٤٤، والبحر المحيط ١/ ٦٥٥.

٧ التحرير والتنوير ١/ ٧٤٣

صِفَةَ النَّصْرَانِيَّةِ وَيُلَوِّنُهُ بِلَوْنِهَا كَمَا يُلَوِّنُ الصِّبْغُ ثَوْبًا مَصْبُوغًا))[١]. ويبدو أن سبب قوله بالابتكار اللغوي في استعمال (صبغة الله) هو جدّةُ استعمالها بالدلالة المذكورة؛ فظاهر كلام الشيخ أنَّ أول استعمال لها بهذه الدلالة هو الوارد في القرآن في هذا الموضع.

وَاللَّهُ وَاسِعٌ: تكلم الشيخُ الطاهرُ على كلمة (واسع) في الآية الكريمة:﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾[آل عمران ٧٣-٧٤] فبيّن معناها الأصلي ثم معناها الذي نتج من اتساع دلالتها بسبب كثرة استعمالها، قال: ((يُطْلَقُ الاِتِّسَاعُ وَمَا يُشْتَقُّ مِنْهُ عَلَى وَفَاءِ شَيْءٍ بِالْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ نَوْعُهُ دُونَ مَشَقَّةٍ يُقَالُ: فُلَانٌ وَاسِعُ الْبَالِ، وَوَاسِعُ الصَّدْرِ، وَوَاسِعُ الْعَطَاءِ. وَوَاسِعُ الْخُلُقِ، فَتَدُلُّ عَلَى: شِدَّةٍ أَوْ كَثْرَةٍ مَا يُسْنَدُ إِلَيْهِ أَوْ يُوصَفُ بِهِ أَو يعلق بِهِ مِنْ أَشْيَاءَ وَمَعَانٍ، وَشَاعَ ذَلِكَ حَتَّى صَارَ مَعْنًى ثَانِيًا))[٢]. وقال الزجاج: ((أصل السعَة فِي الْكَلَام كَثْرَة أَجزَاء الشَّيْء يُقَال إِنَاء وَاسع وَبَيت وَاسع ثمَّ قد يسْتَعْمل فِي الْغنى يُقَال فلَان يُعْطي من سَعَة يرَاهُ من غنى وَجدّة وَفُلَان وَاسع الرحل وَهُوَ الْغَنِيّ))[٣]. قال أبو بكر الانباري في تفسير معنى الواسع: ((الواسع معناه في كلامهم: الكثير العطايا، الذي يسع يسع لما يُسأل، عز وجل... ويقال الواسع: المحيط بعلم كل شيء))[٤]. قال الراغب: ((السَّعَةُ تقال في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل كالقدرة والجود ونحو ذلك))[٥]. بيّن الشيخ الطاهر أن (واسع) ورد في القرآن الكريم، بالمعنى المجازي، اسمًا من أسماء الله الحسنى، قال: ((وواسِعٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَهُوَ بِالْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ لَا مَحَالَةَ لِاسْتِحَالَةِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ فِي شَأْنِهِ تَعَالَى،...، وَإِسْنَادُ وَصْفِ وَاسِعٍ إِلَى اسْمِهِ تَعَالَى إِسْنَادٌ مجازي أَيْضا لأنّ الْوَاسِعَ صِفَاتُهُ فَوَصْفُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّهُ وَاسِعٌ هُوَ سِعَةُ الْفَضْلِ لِأَنَّهُ وَقَعَ تَذْيِيلًا لِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾))[٦]، وقد ذكر الزمخشري الاستعمال المجازي هذا، قال: ((وسع المكان وغيره سعةً واتسع وتوسع واستوسع.،...، ولي في هذا المكان متّسع،...، وفرس وساعٌ ووسيعٌ: واسع الخطو، وقد وسع وساعة. ووسع الرجل المكان، ووسعه المكان. ومن المجاز: إنه ليسعني ما يسعك، ولا يسعني شيء ويضيق عنك، ولا يسعك أن تفعل كذا. ووسّع الله عليه العيش وأوسعه. وأوسع الرجل واستوسع: اتسعت حاله. وهو في عيش واسع " والله واسع "، ووسعت رحمته كل شيء))[٧]. ثم قرر الطاهر بعد ذلك أنَّ استعماله في وصف الله تعالى مما ابتكره القرآن الكريم، قال: ((وَأَحْسَبُ أَنَّ وَصْفَ اللَّهِ بِصِفَةِ وَاسِعٍ فِي الْعَرَبِيَّةِ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ الْقرآن))[٨]. أي أنَّ سبب وصفها بالابتكار هنا هو أنها لم يَسبق أن استُعملَت كلمة الواسع في وَصْف الله تعالى قبل استعمالها في القرآن الكريم.

لَيسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ: توقف الشيخُ الطاهر في تفسيره للآية الكريمة: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾ [آل عمران ١٢٨] على سبب نزولها، وهو أَنَّهُ لَمَّا شُجَّ وَجْهُ الرسول (ص) يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: لَوْ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ دَاعِيًا وَرَحْمَةً، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[٩]. ثم

١ نفسه ١/ ٧٤٣.

٢ نفسه ٣/ ٢٨٥.

٣ تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج: ٥١.

٤ الزاهر في معاني كلمات الناس ١/ ٩٤.وينظر: لسان العرب ٨/ ٣٩٢، وتاج العروس ٢٢/ ٣٢٥.

٥ المفردات في غريب القرآن: ٨٧٠.

٦ التحرير والتنوير ٣/ ٢٨٥. وفيه من كلام الغزالي في: المقصد الأسنى: ١١٩.

٧ أساس البلاغة ٢/ ٣٣٣. وينظر أيضا: المصباح المنير ٢/ ٦٦٠.

٨ التحرير والتنوير ٣/ ٢٨٥.

٩ ينظر: نفسه ٤/ ٨٢. وتنظر أقوال المفسرين فيها، في: جامع البيان ت شاكر ٧/ ١٩٤، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٤٦٧، وأسباب النزول ت الحميدان: ١٢١، وتفسير البغوي ١/ ٥٠٣، و الكشاف ١/ ٤١٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٥، وزاد المسير ١/

ذكر أقوال العلماء في دعاء الرسول على أعدائه وما إذا كانت هذه الآية حرمته عليه أو نسخت جوازه. ثم تحدث عن التركيب الذي تتألف منه الجملة، قال: ((وَاللَّامُ الْجَارَّةُ لَامُ الْمِلْكِ، وَكَافُ الْخِطَابِ لِمُعَيَّنٍ، وَهُوَ الرَّسُولُ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ إِذْ رُكِّبَتْ تَرْكِيبًا وَجِيزًا مَحْذُوفًا مِنْهُ بَعْضُ الْكَلِمَاتِ، وَلَمْ أَظْفَرْ، فِيمَا حَفِظْتُ مِنْ غَيْرِ القرآن، بِأَنَّهَا كَانَتْ مُسْتَعْمَلَةً عِنْدَ الْعَرَبِ، فَلَعَلَّهَا مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن))[١]، ولم يكتفِ بذلك وإنما التفت إلى تراكيبَ نحوية مشابهة وردت في آيات قرآنية أخرى، جاء بعضها محكيًا، فنبّه على أنها إنْ كان القرآن حكاها معنًى فقط دون اللفظ فهي من مبتكراته، وان كانت محكيةً لفظًا ومعنًى فهي في هذه الحال من المبتكرات الدلالية في القرآن الكريم؛ قال: ((وَقَرِيبٌ مِنْهَا قَوْلُهُ:﴿ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة: ٤] وَسَيَجِيءُ قَرِيبٌ مِنْهَا فِي قَوْلِهِ الْآتِي: ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ﴿ويَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنا هاهُنا﴾ [آل عمران: ١٥٤] فَإِنْ كَانَتْ حِكَايَةُ قَوْلِهِمْ بِلَفْظِهِ، فَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مُسْتَعْمَلَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَإِنْ كَانَ حِكَايَةً بِالْمَعْنَى فَلَا))[٢].

الْجَاهِلِيَّةِ: وفي تفسيره للآية الكريمة:﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[آل عمران١٥٤] تكلم الشيخ الطاهر على كلمة: (الجاهلية)؛ فبيَّن أنَّها ((صِفَةٌ جَرَتْ عَلَى مَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ يُقَدَّرُ بِالْفِئَةِ أَوِ الْجَمَاعَةِ، وَرُبَّمَا أُرِيدَ بِهِ حَالَةُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي قَوْلِهِمْ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى﴾[الأحزاب ٣٣]، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ نِسْبَةٌ إِلَى الْجَاهِلِ أَيِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ الدِّينَ وَالتَّوْحِيدَ))[٣]. ثم قرر بعد ذلك أنَّ هذا الاستعمال من جاء به القرآن الكريم، قال: ((وَأَحْسَبُ أَنَّ لَفْظَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن، وَصَفَ بِهِ أَهْلَ الشِّرْكِ تَنْفِيرًا مِنَ الْجَهْلِ، وَتَرْغِيبًا فِي الْعِلْمِ، وَلِذَلِكَ يَذْكُرُهُ القرآن فِي مَقَامَاتِ الذَّمِّ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ:﴿ أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [الْمَائِدَة: ٥٠] ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى﴾[الْأَحْزَاب: ٣٣]﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ ﴾ [الْفَتْح: ٢٦]))[٤]. ثم ذكر قولهم: شِعْرُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَيَّامُ الْجَاهِلِيَّةِ، وقول ابْنُ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ أَبِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ: اسْقِنَا كَأْسًا دِهَاقًا. وعقب عليه: ((وَلَمْ يُسْمَعْ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَّا بَعْدَ نُزُولِ القرآن وَفِي كَلَامِ الْمُسْلِمِينَ))[٥]. وقوله بالابتكار في هذه الكلمة ناتج من أنَّها لم تُستعمَل بهذه الدلالة المذكورة إلَّا في القرآن الكريم، وقد تناول الباحث عودة خليل عودة التطور في دلالة كلمة (الجاهلية) في القرآن الكريم، بعد أن عَرَضَ معانيَها في المعجم العربي والشعر العربي قبلَ الإسلام، وهي: الجهل ضد العلم، والجهل بمعنى الضياع والتّيه، وبمعنى السَّفَه والطيش والغضب، وبمعنى الإعراض عن دين الله تعالى، ثم انتهى إلى أنَّ ((مصطلح الجاهلية الذي صَنَعَهُ القرآنُ الكريم مستمد من الجهل بمعنى السفه والطيش والإعراض وليس من الجهل الذي هو ضد العلم))[٦].

كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ: ذكر الشيخ الطاهر في تفسير قوله تعالى:﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

٣٢٣، ومفاتيح الغيب ٨/ ٣٥٥، و أنوار التنزيل ٢/ ٣٧، مدارك التنزيل ١/ ٢٩٠، والجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٩٩-٢٠٠، والبحر المحيط ٣/ ٣٣٨، واللباب في علوم الكتاب ٥/ ٥٣٠، و إرشاد العقل السليم ٢/ ٨٣، وحاشية الشهاب =عناية القاضي ٥/ ٢٣٩.

١ التحرير والتنوير ٤/ ٨٢.

٢ نفسه ٤/ ٨٣.

٣ نفسه ٤/ ١٣٦.

٤ نفسه ٤/ ١٣٦.

٥ نفسه ٤/ ١٣٦.

٦ التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن:١٥٠.

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الاعراف١٧٥-١٧٦]، أن ((اسْتِعْمَالُ القرآن لَفْظَ الْمَثَلِ بَعْدَ كَافِ التَّشْبِيهِ مَأْلُوفٌ بِأَنَّهُ يُرَادُ بِهِ تَشْبِيهُ الْحَالَةِ بِالْحَالَةِ،،...، فَلِذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ التَّشْبِيهَ هُنَا لَا يَخْرُجُ عَنِ الْمُتَعَارَفِ فِي التَّشْبِيهِ الْمُرَكَّبِ، فَهَذَا الضَّالُّ تَحَمَّلَ كُلْفَةَ اتِّبَاعِ الدِّينِ الصَّالِحِ وَصَارَ يَطْلُبُهُ فِي حِينِ كَانَ غَيْرَ مُكَلَّفٍ بِذَلِكَ فِي زَمَنِ الْفَتْرَةِ فَلَقِيَ مِنْ ذَلِكَ نَصَبًا وَعَنَاءً، فَلَمَّا حَانَ حِينُ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ببعثة مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحَمَّلَ مَشَقَّةَ الْعِنَادِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُ فِي وَقْتٍ كَانَ جَدِيرًا فِيهِ بِأَنْ يَسْتَرِيحَ مِنْ عَنَائِهِ لِحُصُولِ طِلْبَتِهِ فَكَانَتْ حَالَتُهُ شَبِيهَةً بِحَالَةِ الْكَلْبِ الْمَوْصُوفِ بِاللَّهَثِ، فَهُوَ يَلْهَثُ فِي حَالَةِ وُجُودِ أَسْبَابِ اللَّهَثِ مِنَ الطَّرْدِ وَالْإِرْهَابِ وَالْمَشَقَّةِ وَهِيَ حَالَةُ الْحَمْلِ عَلَيْهِ، وَفِي حَالَةِ الْخُلُوِّ عَنْ ذَلِكَ السَّبَبِ وَهِيَ حَالَةُ تَرْكِهِ فِي دَعَةٍ وَمُسَالَمَةٍ، وَالَّذِي يُنَبِّهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى هُوَ قَوْلُهُ أَوْ تَتْرُكْهُ))[١]. وبيّن الطاهرُ علةَ اختيار حيوان الكلب للتشبيه به دونَ غيره من الحيوانات بأنّه ((لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ حَالَةٌ تصلح لِلتَّشْبِيهِ بِهَا فِي الْحَالَتَيْنِ غَيْرُ حَالَةِ الْكَلْبِ اللَّاهِثِ، لِأَنَّهُ يَلْهَثُ إِذَا أُتْعِبَ وَإِذَا كَانَ فِي دَعَةٍ، فَاللَّهَثُ فِي أَصْلِ خِلْقَتِهِ))[٢]. وبعد أنْ كَشَفَ عمّا في هذا التمثيل المركب من دقة في الاختيار والتعبير الذي يرسم صورة متكاملة للحالة المراد التعبير عنها على نحو يغري المتلقي بالتدقيق في ملامح هذه الصورة وفهم دلالاتها وإيحاءاتها، ثم يقرر ان هذا التمثيل من ابتكار القرآن الكريم، قال: ((وَهَذَا التَّمْثِيلُ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن،...، فَهَذَا تَشْبِيهُ تَمْثِيلٍ مُرَكَّبٌ مُنْتَزَعَةٌ فِيهِ الْحَالَةُ الْمُشَبَّهَةُ وَالْحَالَةُ الْمُشَبَّهُ بِهَا مِنْ مُتَعَدِّدٍ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ فِي شَقِّ الْحَالَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا، تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مُقَابِلٌ فِي الْحَالَةِ الْمُشَبَّهَةِ، وَتَتَقَابَلُ أَجْزَاءُ هَذَا التَّمْثِيلِ بِأَنْ يُشَبَّهَ الضَّالُّ بِالْكَلْبِ، وَيُشَبَّهَ شَقَاؤُهُ وَاضْطِرَابُ أَمْرِهِ فِي مُدَّةِ الْبَحْثِ عَنِ الدِّينِ بِلَهَثِ الْكَلْبِ فِي حَالَةِ تَرْكِهِ فِي دَعَةٍ، تَشْبِيهَ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ، وَيُشَبَّهَ شَقَاؤُهُ فِي إِعْرَاضِهِ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ عِنْدَ مَجِيئِهِ بِلَهَثِ الْكَلْبِ فِي حَالَةِ طَرْدِهِ وَضَرْبِهِ تَشْبِيهَ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ. وَقَدْ أَغْفَلَ هَذَا الَّذِينَ فَسَّرُوا هَذِهِ الْآيَةَ فَقَرَّرُوا التَّمْثِيلَ بِتَشْبِيهِ حَالَةٍ بَسِيطَةٍ بِحَالَةٍ بَسِيطَةٍ فِي مُجَرَّدِ التَّشْوِيهِ أَو الخسة. فيؤول إِلَى أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْكَلْبِ إِظْهَارُ خِسَّةِ الْمُشَبَّهِ، كَمَا دَرَجَ عَلَيْهِ فِي «الْكَشَّافِ»، وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمُرَادَ لَمَا كَانَ لِذِكْرِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ كَبِيرُ جَدْوَى، بَلْ يَقْتَصِرُ عَلَى أَنَّهُ لِتَشْوِيهِ الْحَالَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا، لِتَكْتَسِبَ الْحَالَةُ الْمُشَبَّهَةُ تَشْوِيهًا، وَذَلِكَ تَقْصِيرٌ فِي حَقِّ التَّمْثِيلِ))[٣]. وقد سبق أن أشار بعض القدماء إلى ما في هذا التمثيل من بلاغة متناهية في الحسن؛ قال الزجاج: ((ضرب اللَّه عزَّ وجلَّ: بالتارِك لآياته والعَادِلِ عنها. أحسن مثل في أخَسِّ أحْوالِه، فقال عزْ وجل: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ) إذا كان الكلب لهثان، وذلك أن الكلب إذا كان يلهث فهو لا يقدر لنفسه على ضَر وَلَا نَفْع، لأن التمثيل به على أنه يلهث على كل حال حملت عليه أو تركته، فالمعنى فمثله كمثل الكلب لاهثاً))[٤]. وقد عدّه أبو هلال العسكري من أجود صور التشبيه وابلغه، لأنَّ فيه إخراجَ ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه من لهث الكلب[٥]. وقال البيضاوي: ((والتمثيل واقع موقع لازم التركيب الذي هو نفي الرفع ووضع المنزلة للمبالغة والبيان))[٦]. ونقل القرطبي في تفسيره: ((هَذَا شَرُّ تَمْثِيلٍ، لِأَنَّهُ مِثْلُهُ

---

١ التحرير والتنوير ٩/ ١٧٧. وينظر تفسير التمثيل في: جامع البيان ٢٧١/١٣، والحيوان ٢٣٨/١ و١٦٦/٢، الأمثال من الكتاب والسنة: ٢٨، ومعاني القرآن للنحاس ١٠٦/٣، والانتصار للقرآن للباقلاني ٧٥٠/٢، والتفسير الوسيط ٢/ ٤٢٨، والمفردات في غريب القرآن ٧٦٠، وتفسير البغوي ٢/ ٢٥٢، والكشاف ٢/ ١٧٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٨، وزاد المسير ٢/ ١٧١، ومفاتيح الغيب ٤٠٥/١٥- ٤٠٦، وأنوار التنزيل ٣/ ٤٢، ومدارك التنزيل ١/ ٦١٨، والبحر المحيط ٥/ ٢٢٤-٢٢٥، واللباب في علوم الكتاب ٩/ ٣٩٠-٣٩١، وبصائر ذوي التمييز ٤/ ٤٨٣، روح المعاني ٢/ ٣٦٦، ومحاسن التأويل ٥/ ٢٢٣، وفي ظلال القرآن ٣/ ١٣٩٦.

٢ التحرير والتنوير ٩/ ١٧٧.

٣ نفسه ٩/ ١٧٧-١٧٨.

٤ معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٣٩١.

٥ ينظر :الصناعتين: الكتابة والشعر : ٢٤٠.

٦ أنوار التنزيل ٣/ ٤٢.

فِي أَنَّهُ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ هَوَاهُ حَتَّى صَارَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا بِكَلْبٍ لَاهِثٍ أَبَدًا، حُمِلَ عَلَيْهِ أَوْ لَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ، فَهُوَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ تَرْكَ اللَّهَثَانِ))[١]. ويعلق السيد قطب على الصورة التي يحتويها هذا التمثيل، واصفا إياه بالجديد وغير المسبوق في لغة العرب، قال: ((إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات؛ إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع، ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً،...، ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد. كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر،...، وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد إلا هذا القرآن العجيب الفريد))[٢].

خُذِ الْعَفْوَ: وفي تفسير قوله تعالى:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[الاعراف١٩٩] يبين الشيخ الطاهر المعنى اللغوي لـ (الأخذ) واستعماله المجازي على طريق الاستعارة في الآية الكريمة، فقول: ((وَالْأَخْذُ حَقِيقَتُهُ تَنَاوُلُ شَيْءٍ لِلِانْتِفَاعِ بِهِ أَوْ لِإِضْرَارِهِ، كَمَا يُقَالُ: أَخَذْتُ الْعَدُوَّ مِنْ تَلَابِيبِهِ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ فِي الْأَسِيرِ أَخِيذٌ، وَيُقَالُ لِلْقَوْمِ إِذَا أُسِرُوا: أُخِذُوا وَاسْتُعْمِلَ هُنَا مَجَازًا فَاسْتُعِيرَ لِلتَّلَبُّسِ بِالْوَصْفِ وَالْفِعْلِ مِنْ بَيْنِ أَفْعَالٍ لَوْ شَاءَ لَتَلَبَّسَ بِهَا، فَيُشَبِّهُ ذَلِكَ التَّلَبُّسَ وَاخْتِيَارَهُ عَلَى تَلَبُّسٍ آخَرَ بِأَخْذِ شَيْءٍ مِنْ بَيْنِ عِدَّةِ أَشْيَاءَ، فَمَعْنَى (خُذِ الْعَفْوَ): عَامِلْ بِهِ وَاجْعَلْهُ وَصْفًا وَلَا تَتَلَبَّسْ بِضِدِّهِ))[٣]. ثم يذهب بعد ذلك إلى أن استعمال هذه الاستعارة من الابتكار اللغوي والبلاغيِّ للقرآن الكريم، قال: ((وَأَحْسَبُ اسْتِعَارَةَ الْأَخْذِ لِلْعُرْف مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن وَلِذَلِك أرجح أَنَّ الْبَيْتَ الْمَشْهُورَ وَهُوَ:

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مودتي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

هُوَ لِأَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ، وَأَنَّهُ اتَّبَعَ اسْتِعْمَالَ القرآن، وَأَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَى أَسْمَاءَ بن خَارِجَةَ الْفَزَارِيِّ أَوْ إِلَى حَاتِمٍ الطَّائِيِّ غَيْرُ صَحِيحَةٍ))[٤]. ويبدو من هذا النص أنَّ قول الطاهر بأنَّ استعمال (خذ العفو) من ابتكار القرآن، قد قاده إلى توجيه ما وجده من تعبير مماثل، في البيت المذكور المنسوب إلى شاعرين[٥] من شعراء ما قبل الإسلام، بأن هذه النسبة غير صحيحة وانه وانه لأبي الأسود الدؤلي الذي تأثر بالاستعمال القرآني.

ذَاتَ بَيْنِكُمْ: وقف الشيخُ الطاهر على معنى عبارة: (وأصلحوا ذات بينكم)، في قوله تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[الانفال١]، فقال: ((وَالْإِصْلَاحُ: جَعْلُ الشَّيْءِ صَالِحًا، وَهُوَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّهُ كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ، فَالْأَمْرُ بِالْإِصْلَاحِ دَلَّ عَلَى فَسَادِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ، وَهُوَ فَسَادُ التَّنَازُعِ وَالتَّظَالُمِ. وذاتَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُؤَنَّثُ (ذُو) الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى صَاحِبٍ فَتَكُونُ أَلِفُهَا مُبْدَلَةً مِنَ الْوَاوِ،....، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (ذَاتَ) أَصْلِيَّةُ الْأَلْفِ كَمَا يُقَالُ: أَنَا أَعْرِفُ ذَاتَ فُلَانٍ، فَالْمَعْنَى حَقِيقَةُ الشَّيْءِ وَمَاهِيَّتُهُ،...، فَصَارَ الْمَعْنَى: أَصْلِحُوا حَقِيقَةَ بَيْنِكُمْ أَيِ

١ الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٣٢٣.

٢ في ظلال القرآن ٣/ ١٣٩٦-١٣٩٧.

٣ التحرير والتنوير ٩/ ٢٢٦.

٤ نفسه ٩/ ٢٢٦.

٥ ينسب البيت إلى أسماء بن خارجة في: الموشى = الظرف والظرفاء: ١٤٩، والتذكرة الحمدونية ٣/ ٣٣٩، وجمهرة خطب العرب ٢/ ٥٠٧، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٩/ ٥٧، وفوات الوفيات ١/ ١٦٩، والوافي بالوفيات ٩/ ٣٨. وينسب إلى حاتم الطائي في:المحرر الوجيز٢/ ٤٩١، والبحر المحيط ٥/ ٢٥٦.ونسب إلى أبي الأسود في: عيون الأخبار ٣/ ١٦، و٤/ ٧٦.

اجْعَلُوا الْأَمْرَ الَّذِي يَجْمَعُكُمْ صَالِحًا غَيْرَ فَاسِدٍ))[١]. ثم قرر أن هذا التعبير مما ابتكره القرآن الكريم، قال: ((وَاعْلَمْ أَنِّي لَمْ أَقِفْ عَلَى اسْتِعْمَالِ (ذَاتِ بَيْنٍ) فِي كَلَامِ الْعَرَبِ فَأَحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن))[٢].

التخلص بـ (إذ): قال الشيخ الطاهر بعد تفسيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (١١) ﴾[سورة الأنفال]: ((لَقَدْ أَبْدَعَ نَظْمُ الْآيَاتِ فِي التَّنَقُّلِ مِنْ قِصَّةٍ إِلَى أُخْرَى مِنْ دَلَائِلِ عِنَايَةِ اللَّهِ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) تَعَالَى بِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، فَقَرَنَهَا، فِي قَرْنٍ زَمَانِهَا، وَجَعَلَ يَنْتَقِلُ مِنْ إِحْدَاهَا إِلَى الْأُخْرَى بِوَاسِطَةِ إِذِ الزَّمَانِيَّةِ، وَهَذَا مِنْ أَبْدَعِ التَّخَلُّصِ، وَهُوَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن فِيمَا أَحْسَبُ))[٣].

وراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ: تحدث الشيخُ الطاهر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ [يوسف ١٢] عن معنى المراودة، فتناول اشتقاقها من الفعل راد، ومعناها كما بينته المعاجم وما تدل عليه صيغة مفاعلة من تكرار الفعل، أو جود طرفين يشتركان فيه أو يتجاذبانه، قال: ((فَالْمُرَاوَدَةُ الْمُقْتَضِيَةُ تَكْرِيرَ الْمُحَاوَلَةِ بِصِيغَةِ الْمُفَاعَلَةِ، وَالْمُفَاعَلَةُ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي التَّكْرِيرِ. وَقِيلَ: الْمُفَاعَلَةُ تَقْدِيرِيَّةٌ بِأَنِ اعْتَبَرَ الْعَمَلَ مِنْ جَانِبٍ وَالْمُمَانَعَةَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْعَمَلِ بِمَنْزِلَةِ مُقَابَلَةِ الْعَمَلِ بِمِثْلِهِ. وَالْمُرَاوَدَةُ: مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَادَ يَرُودُ، إِذَا جَاءَ وَذَهَبَ. شَبَّهَ حَالَ الْمُحَاوِلِ أَحَدًا عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مُكَرِّرًا ذَلِكَ. بِحَالِ مَنْ يَذْهَبُ وَيَجِيءُ فِي الْمُعَاوَدَةِ إِلَى الشَّيْءِ الْمَذْهُوبِ عَنْهُ، فَأَطْلَقَ رَاوَدَ بِمَعْنَى حَاوَلَ))[٤]. وقد فسّرها الراغبُ، قال: ((والمُرَاوَدَةُ: أن تنازع غيرك في الإرادة، فتريد غير ما يريد، أو ترود غير ما يرود، وراوَدْتُ فلانا عن كذا. قال: ﴿هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾[يوسف٢٦]، وقال:﴿ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ﴾[يوسف ٣٠]، أي: تصرفه عن رأيه، وعلى ذلك قوله:﴿وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾))[٥]. ثم ينتقل الشيخ للكلام على دلاله تعدية الفعل راود بعن، مبينا ان هذا الاستعمال كناية غرض المواقعة، قال: ((وعَنْ لِلْمُجَاوَزَةِ، أَيْ رَاوَدَتْهُ مُبَاعَدَةً لَهُ عَنْ نَفْسِهِ، أَيْ بِأَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ لَهَا. وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا التَّرْكِيبَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ الْقُرآنِ، فَالنَّفْسُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنْ غَرَضِ الْمُوَاقَعَةِ، قَالَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ، أَيْ فَالنَّفْسُ أُرِيدَ بِهَا عَفَافُهُ وَتَمْكِينُهَا مِنْهُ لِمَا تُرِيدُ، فَكَأَنَّهَا تُرَاوِدُهُ عَنْ أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهَا إِرَادَتَهُ وَحُكْمَهُ فِي نَفْسِهِ. وَأَمَّا تَعْدِيَتُهُ بِـ (عَلَى) فَذَلِكَ إِلَى الشَّيْءِ الْمَطْلُوبِ حُصُولُهُ. وَوَقَعَ فِي قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَاوِدُ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ عَلَى الْإِسْلَامِ: وَفِي حَدِيثِ الإسلاء «فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قد وَاللهِ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكُوهُ»))[٦].

الضمائر في (ردوا، وأيديهم، وأفواههم): وفي تفسيره قوله تعالى:﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[ابراهيم٩] توقف الشيخ على استعمال النص الكريم للضمائر في (ردوا، وأيديهم، وأفواههم) التي تعود

---

١ التحرير والتنوير ٢٥٣/٩. وينظر: معاني القرآن للأخفش ٣٤٥/١، وجامع البيان ٣٦٧/١٣، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤٠٠/٢، ومعاني القرآن للنحاس ١٢٩/٣، والكشاف ١٩٥/٢، والمحرر الوجيز ٥٠٠/٢، ومفاتيح الغيب ٤٤٩/١٥–٤٥٠.

٢ التحرير والتنوير ٩/ ٢٥٤.

٣ التحرير والتنوير ٩/ ٢٧٧–٢٧٨.

٤ نفسه ١٢/ ٢٥٠.

٥ المفردات في غريب القرآن: ٣٧١.

٦ التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٠.

إلى المتكلم عنهم سابقا وهم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، فذهب إلى ان هذا التركيب على هذا النحو لم يسبق للعرب ان استعملته، أي ان القرآن الكريم قد ابتكره بسبقه إليه، قال: ((وَمَعْنَى جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ جَاءَ كُلَّ أُمَّةٍ رسولها. وضمائر فَرَدُّوا وأَيْدِيَهُمْ وأَفْواهِهِمْ عَائِدٌ جَمِيعُهَا إِلَى قَوْمِ نُوحٍ وَالْمَعْطُوفَاتِ عَلَيْهِ. وَهَذَا التَّرْكِيبُ لَا أَعْهَدُ سَبْقَ مِثْلِهِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ فَلَعَلَّهُ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن))[١].

الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى: وبعد أن فسّر الشيخُ قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الاسراء١] انتهى إلى الكلام على استعمال النص لـ (المسجد الأقصى) الذي يراد به اسجد بيت المقدس الذي وصف بالأقصى لبعده عن مكة المكرمة ويرى ان هذا الاستعمال من ابتكار القرآن؛ لان العرب لم يكونوا يصفونه بهذا الوصف، قال: ((وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى هُوَ الْمَسْجِدُ الْمَعْرُوفُ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ الْكَائِنِ بِإِيلِيَاءَ، وَهُوَ الْمَسْجِدُ الَّذِي بَنَاهُ سُلَيْمَانُ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-. وَالْأَقْصَى، أَيِ الْأَبْعَدُ. وَالْمُرَادُ بُعْدُهُ عَنْ مَكَّةَ، بِقَرِينَةِ جَعْلِهِ نِهَايَةَ الْإِسْرَاءِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَهُوَ وَصْفٌ كَاشِفٌ اقْتَضَاهُ هُنَا زِيَادَةُ التَّنْبِيهِ عَلَى مُعْجِزَةِ هَذَا الْإِسْرَاءِ وَكَوْنُهُ خَارِقًا لِلْعَادَةِ لِكَوْنِهِ قَطَعَ مَسَافَةً طَوِيلَةً فِي بَعْضِ لَيْلَةٍ. وَبِهَذَا الْوَصْفِ الْوَارِدِ لَهُ فِي القرآن صَارَ مَجْمُوعُ الْوَصْفِ وَالْمَوْصُوفِ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ عَلَى مَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَمَا كَانَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ عَلَى مَسْجِدِ مَكَّةَ. وَأَحْسَبُ أَنَّ هَذَا الْعلم لَهُ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن فَلَمْ يَكُنِ الْعَرَبُ يَصِفُونَهُ بِهَذَا الْوَصْفِ وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فَهِمُوا الْمُرَادَ مِنْهُ أَنَّهُ مَسْجِدُ إِيلِيَاءَ. وَلَمْ يَكُنْ مَسْجِدٌ لِدِينٍ إِلَهِيٍّ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ. وَفِي هَذَا الْوَصْفِ بِصِيغَةِ التَّفْضِيلِ بِاعْتِبَارِ أَصْلِ وَضْعِهَا مُعْجِزَةٌ خَفِيَّةٌ مِنْ مُعْجِزَاتِ القرآن إِيمَاءً إِلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ مَسْجِدٌ عَظِيمٌ هُوَ مَسْجِدُ طِيبَةَ الَّذِي هُوَ قَصِيٌّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَيَكُونُ مَسْجِدُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَقْصَى مِنْهُ حِينَئِذٍ))[٢].

كُلٌّ فِي فَلَكٍ: وقد تحدث الشيخ الطاهر عن فن بلاغي جديد من ابتكار القرآن الكريم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾، إذ نبّه الشيخُ على أنَّ فيه محسنًا بلاغيًا لم يَسْبِقْ أن استعملته العربُ قبلَ هذا، وذلك في قوله: (كُلٌّ فِي فَلَكٍ)، وقد عده من مظاهر الإعجاز القرآني، قال: ((وَمِنْ بَدَائِعِ الْإِعْجَازِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾، فِيهِ مُحَسِّنٌ بَدِيعِيٌّ فَإِنَّ حُرُوفَهُ تُقْرَأُ مِنْ آخِرِهَا عَلَى التَّرْتِيبِ كَمَا تُقْرَأُ مِنْ أَوَّلِهَا مَعَ خِفَّةِ التَّرْكِيبِ وَوَفْرَةِ الْفَائِدَةِ وَجَرَيَانِهِ مُجْرَى الْمَثَلِ مِنْ غَيْرِ تَنَافُرٍ وَلَا غَرَابَةٍ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ رَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣] بِطَرْحِ وَاوِ الْعَطْفِ، وَكِلْتَا الْآيَتَيْنِ بُنِيَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ،...، وَهُوَ نَوْعٌ صَعْبُ الْمَسْلَكِ قَلِيلُ الِاسْتِعْمَالِ. قُلْتُ: وَلَمْ يَذْكُرُوا مِنْهُ شَيْئًا وَقَعَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ فَهُوَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن. ذَكَرَ أَهْلُ الْأَدَبِ أَنَّ الْقَاضِي الْفَاضِلَ الْبَيْسَانِيَّ زَارَ الْعِمَادَ الْكَاتِبَ فَلَمَّا رَكِبَ لِيَنْصَرِفَ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ لَهُ الْعِمَادُ: «سِرْ فَلَا كَبَا بِكَ الْفَرَسُ» فَفَطِنَ الْقَاضِي أَنَّ فِيهِ مُحَسِّنَ الْقَلْبِ فَأَجَابَهُ عَلَى الْبَدِيهَةِ: «دَامَ عُلَا الْعِمَادِ» وَفِيهِ محسن الْقلب))[٣].

إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا: ومن الابتكار التركيبي والدلالي للقرآن الكريم ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾ [المؤمنون٩٩-١٠٠]، وذلك في قوله: كلا إنها كلمة هو قائلها، فقال: ((وَقَوْلُهُ: إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها تَرْكِيبٌ يَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ وَهُوَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن. وَحَاصِلُ مَعْنَاهُ: أَنَّ قَوْلَ الْمُشْرِكِ رَبِّ ارْجِعُونِ إِلَخْ لَا يَتَجَاوَزُ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا صَدَرَ مِنْ لِسَانِهِ لَا جَدْوَى لَهُ فِيهِ، أَيْ لَا يُسْتَجَابُ طَلَبُهُ بِهِ. فَجُمْلَةُ هُوَ قائِلُها وَصْفٌ لِـ: كَلِمَةٌ، أَيْ هِيَ كَلِمَةٌ هَذَا وَصْفُهَا. وَإِذْ كَانَ مِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّهُ قَائِلُهَا لَمْ يَكُنْ فِي وَصْفِ كَلِمَةٌ بِهِ فَائِدَةٌ جَدِيدَةٌ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَى أَنَّهُ لَا وَصْفَ لِكَلِمَتِهِ غَيْرُ كَوْنِهَا صَدَرَتْ مِنْ فِي صَاحِبِهَا. وَبِذَلِكَ يُعْلَمُ أَنَّ التَّأْكِيدَ بِحَرْفِ (إِنَّ) لِتَحْقِيقِ الْمَعْنَى الَّذِي اسْتُعْمِلَ لَهُ الْوَصْفُ))[٤].

---

١ نفسه ١٣/ ١٩٧.

٢ التحرير والتنوير ١٥/ ١٤-١٥.

٣ نفسه ١٧/ ٦٢.

٤ نفسه ١٨/ ١٢٣-١٢٤.

فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا: يفهم من كلام الشيخ الطاهر على هذا التعبير الوارد في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان٥٩]، أنَّه يجد فيه ابتكارًا تركيبيًا ودلاليًا جديدًا متفرِّدًا غيرَ مسبوق، إذ تحدثَ عن تركيبه وربطه بما يؤدي إليه من دلالة يرى أنهما لم يجتمعا في كلام العرب قبل القرآن، قال: ((وَتَنْكِيرُ خَبِيراً لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْعُمُومِ، فَلَا يُظَنُّ خَبِيرًا مُعَيَّنًا، لِأَنَّ النَّكِرَةَ إِذَا تَعَلَّقَ بها فعل الْأَمر اقْتَضَتْ عُمُومًا بِدَلِيلِ أَيِّ خَبِيرٍ سَأَلْتَهُ أَعْلَمَكَ. وَهَذَا يَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ وَلَعَلَّهُ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن نَظِيرَ قَوْلِ الْعَرَبِ: «عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ» يَقُولُهَا الْعَارِفُ بِالشَّيْءِ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ))[١]. ولم يكتفِ الشيخُ الطاهر بذلك بل أخذ يوازن بين التعبير القرآني والمثل المذكور، مبينا ما يمتاز به المثل القرآني من خصائص تركيبية تجعله لجمع للدلالة والبلاغة، قال: ((وَالْمَثَلَانِ وَإِنْ تَسَاوَيَا فِي عَدَدِ الْحُرُوفِ الْمَنْطُوقِ بِهَا فَالْمَثَلُ القرآنيُ أَفْصَحُ لِسَلَامَتِهِ مِنْ ثِقَلِ تَلَاقِي الْقَافِ وَالطَّاءِ وَالتَّاءِ فِي (سَقَطْتَ). وَهُوَ أَيْضًا أَشْرَفُ لِسَلَامَتِهِ مِنْ مَعْنَى السُّقُوطِ، وَهُوَ أَبْلَغُ مَعْنًى لِمَا فِيهِ مِنْ عُمُومِ كُلِّ خَبِيرٍ، بِخِلَافِ قَوْلِهِمْ: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ[٢]، لِأَنَّهَا إِنَّمَا يَقُولُهَا الْوَاحِدُ الْمُعَيَّنُ،...، وَالْبَاءُ فِي بِهِ بِمَعْنَى (عَنْ) أَيْ فَاسْأَلْ عَنْهُ،.....، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ مُتَعَلِّقَةً بِـ (خَبِيراً) وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ لِلرَّعْيِ عَلَى الْفَاصِلَةِ وَلِلِاهْتِمَامِ، فَلهُ سببان))[٣].

كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا: ومن ابتكارات القرآن البلاغية عند الشيخ الطاهر التمثيل القرآنيّ الوارد في قوله تعالى:﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت٤١] فهو يرى أن هذا التشبيه جديد وغير مسبوق وأنَّ القرآن الكريم ابتكره، قال: ((وَجُمْلَةُ اتَّخَذَتْ بَيْتاً حَالٌ مِنَ الْعَنْكَبُوتِ وَهِيَ قَيْدٌ فِي التَّشْبِيهِ. وَهَذِهِ الْهَيْئَةُ الْمُشَبَّهُ بِهَا مَعَ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ قَابِلَةٌ لِتَفْرِيقِ التَّشْبِيهِ عَلَى أَجْزَائِهَا فَالْمُشْرِكُونَ أَشْبَهُوا الْعَنْكَبُوتَ فِي الْغُرُورِ بِمَا أَعَدُّوهُ، وَأَوْلِيَاؤُهُمْ أَشْبَهُوا بَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ فِي عَدَمِ الْغَنَاءِ عَمَّنِ اتَّخَذُوهَا وَقْتَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَتَزُولُ بِأَقَلِّ تَحْرِيكٍ، وَأَقْصَى مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْهَا نَفْعٌ ضَعِيفٌ وَهُوَ السُّكْنَى فِيهَا وَتَوَهُّمُ أَنْ تَدْفَعَ عَنْهُمْ كَمَا يَنْتَفِعُ الْمُشْرِكُونَ بِأَوْهَامِهِمْ فِي أَصْنَامِهِمْ. وَهُوَ تَمْثِيلٌ بَدِيعٌ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا عِنْدَ قَوْلِهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ[٤] [٤٣]،.....، وَجُمْلَةُ: وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ، مُعْتَرِضَةٌ مُبَيِّنَةٌ وَجْهَ الشَّبَهِ. وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ فَيُضْرَبُ لِقِلَّةِ جَدْوَى شَيْءٍ))[٥].

كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ: ومن الابتكار التركيبي والدلالي القرآن ما جاء في قوله تعالى:﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الشورى ٣]، إذ يرى الشيخ الطاهر أنَّ قوله: (كذلك يوحي) تعبيرٌ غيرُ مستعمل قبل القرآن الكريم لأنَّه لم يقف عليه في ما قرأه، قال: ((وَجُمْلَةُ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ إِلَى آخِرِهَا ابْتِدَائِيَّةٌ، وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ مِنْ قَوْلِهِ كَذَلِكَ عَلَى يُوحِي: إِلَيْكَ لِلِاهْتِمَامِ بِالْمُشَارِ إِلَيْهِ وَالتَّشْوِيقِ بِتَنْبِيهِ الْأَذْهَانِ إِلَيْهِ، وَإِذْ لَمْ يَتَقَدَّمْ فِي الْكَلَامِ مَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُشَارًا إِلَيْهِ بِـ كَذلِكَ عُلِمَ أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ مُقَدَّرٌ مَعْلُومٌ مِنَ الْفِعْلِ الَّذِي بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ وَهُوَ الْمَصْدَرُ الْمَأْخُوذُ مِنَ الْفِعْلِ، أَيْ كَذَلِكَ الْإِيحَاءِ يُوحِي إِلَيْكَ اللَّهُ. وَهَذَا اسْتِعْمَالٌ مُتَّبَعٌ فِي نَظَائِرِ هَذَا التَّرْكِيبِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [١٤٣]. وَأَحْسَبُ أَنَّهُ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن إِذْ لَمْ أَقِفْ عَلَى مِثْلِهِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ قَبْلَ القرآن))[٦]. وعندما يجد الشيخ أنَّ الشهاب

١ التحرير والتنوير ١٩/ ٦١.

٢ ينظر تخريجه في: الأمثال لابن سلام: ٢٠٦، وجمهرة الأمثال ٢/٤٦، والأمثال للهاشمي ١/١٦٩، والعقد الفريد٣ /٦.

٣ التحرير والتنوير ١٩/ ٦١.

٤ قال الشيخ الطاهر في موضع آخر: ((وَالتَّمْثِيلُ مَنْزَعٌ جَلِيلٌ بَدِيعٌ مِنْ مَنَازِعِ الْبُلَغَاءِ لَا يَبْلُغُ إِلَى مَحَاسِنِهِ غَيْرُ خَاصَّتِهِمْ وَقَدِ اخْتَصَّ لَفْظُ الْمَثَلِ (بِفَتْحَتَيْنِ) بِإِطْلَاقِهِ عَلَى الْحَالِ الْغَرِيبَةِ الشَّأْنِ لِأَنَّهَا بِحَيْثُ تُمَثَّلُ لِلنَّاسِ وَتُوَضِّحُ وَتُشَبَّهُ،...، فَالظَّاهِرُ أَنَّ إِطْلَاقَ الْمَثَلِ عَلَى الْقَوْلِ الْبَدِيعِ السَّائِرِ بَيْنَ النَّاسِ الصَّادِرِ مِنْ قَائِلِهِ فِي حَالَةٍ عَجِيبَةٍ هُوَ إِطْلَاقٌ مُرَتَّبٌ عَلَى إِطْلَاقِ اسْمِ الْمَثَلِ عَلَى الْحَالِ الْعَجِيبَةِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَكَادُونَ يَضْرِبُونَ مَثَلًا وَلَا يَرَوْنَهُ أَهْلًا لِلتَّسْيِيرِ وَجَدِيرًا بِالتَّدَاوُلِ إِلَّا قَوْلًا فِيهِ بَلَاغَةٌ وَخُصُوصِيَّةٌ فِي فَصَاحَةِ لَفْظٍ وَإِيجَازِهِ وَوَفْرَةِ مَعْنًى، فَالْمَثَلُ قَول عَزِيز غَرِيب لَيْسَ من مُتَعَارَفِ الْأَقْوَالِ الْعَامَّةِ بَلْ هُوَ مِنْ أَقْوَالِ فُحُولِ الْبَلَاغَةِ فَلِذَلِكَ وُصِفَ بِالْغَرَابَةِ)). التحرير والتنوير ١/ ٣٠٢-٣٠٣.

٥ التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٥٣.

٦ نفسه ٢٥/ ٢٨.

الشهاب الخفاجي قد استشهد بشاهد من شعر زهير فيه التركيب نفسه، فانه حاكم هذا البيت وانتهى إلى انه لا يماثل التركيب القرآني، لان بيت زهير مسبوق بمشار إليه، قال: ((وَمَا ذَكَرَهُ الْخَفَاجِيُّ[١] فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ تَنْظِيرِهِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ[٢]:

كَذَلِكَ خَيْمُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ إِذَا مَسَّتْهُمُ الضَّرَّاءُ خَيْمُ

لَا يَصِحُّ لِأَنَّ بَيْتَ زُهَيْرٍ مَسْبُوقٌ بِمَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مُشَارًا إِلَيْهِ، وَقَدْ فَاتَنِي التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ فَعَلَيْكَ بِضَمِّ مَا هُنَا إِلَى مَا هُنَالِكَ. وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ صِفَةٌ لِمَفْعُولٍ مُطْلَقٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ يُوحِي أَيْ إِيحَاءً كَذَلِكَ الْإِيحَاءِ الْعَجِيبِ)).[٣]

حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها: وقد عدّ الشيخُ الطاهر هذا التعبير القرآني الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِذا لَقِيتُم الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (٤) ﴾، مما ابتكره القرآن الكريم، لأنه تمثيل جديد لم يسبق إليه، قال: ((وَالْغَايَةُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ حَتَّى فِي قَوْلِهِ: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها لِلتَّعْلِيلِ لَا لِلتَّقْيِيدِ، أَيْ لِأَجْلِ أَنْ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، أَيْ لِيَكُفَّ الْمُشْرِكُونَ عَنْهَا فَتَأْمَنُوا مِنَ الْحَرْبِ عَلَيْكُمْ وَلَيْسَتْ غَايَةً لِحُكْمِ الْقِتَالِ،...، وَالْأَوْزَارُ: الْأَثْقَالُ، وَوَضْعُ الْأَوْزَارِ تَمْثِيلٌ لِانْتِهَاءِ الْعَمَلِ فَشُبِّهَتْ حَالَةُ انْتِهَاءِ الْقِتَالِ بِحَالَةِ وَضْعِ الْحَمَّالِ أَوِ الْمُسَافِرِ أَثْقَالَهُ، وَهَذَا مِنْ مُبْتَكَرَاتِ الْقرآن))[٤].

حسوم: ومن الابتكار القرآني الناتج من الدلالة الجديدة للفظ –عند الشيخ الطاهر– استعمال كلمة (حسوم) في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾[الحاقة٥–٧]، وذلك في إحدى الدلالات التي يحتملها هذا اللفظ، وهو ان يكون مشتقا من حسم الداء بتتابع الكي أياما ثم نقل بالاستعارة من هذا المعنى إلى المعنى القرآني الوارد في الآية الكريمة، قال: ((و (حسوم) يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعَ حَاسِمٍ مِثْلُ قُعُودٍ جَمْعُ قَاعِدٍ، وَشُهُودٍ جَمْعُ شَاهِدٍ، غُلِّبَ فِيهِ الْأَيَّامُ عَلَى اللَّيَالِي لِأَنَّهَا أَكْثَرُ عَدَدًا إِذْ هِيَ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ وَهَذَا لَهُ مَعَانٍ: أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: يُتَابِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، أَيْ لَا فَصْلَ بَيْنَهَا كَمَا يُقَالُ: صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ،...، قِيلَ: وَالْحُسُومُ مُشْتَقٌّ مِنْ حَسْمِ الدَّاءِ بِالْمِكْوَاةِ إِذْ يُكْوَى وَيُتَابَعُ الْكَيُّ أَيَّامًا، فَيَكُونُ إِطْلَاقُهُ اسْتِعَارَةً، وَلَعَلَّهَا مِنْ مُبْتَكَرَاتِ الْقرآن، وَبَيْتُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْكِلَابِيِّ مِنَ الشِّعْرِ الْإِسْلَامِيِّ فَهُوَ مُتَابِعٌ لِاسْتِعْمَالِ الْقرآن. الْمَعْنَى الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَسْمِ وَهُوَ الْقَطْعُ، أَيْ حَاسِمَةً مُسْتَأْصِلَةً. وَمِنْهُ سُمِّيَ السَّيْفُ حُسَامًا لِأَنَّهُ يَقْطَعُ، أَيْ حَسَمَتْهُمْ فَلَمْ تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَعَلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ فَهُوَ صِفَةٌ لِ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ أَوْ حَالٌ مِنْهَا. الْمَعْنَى الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ حُسُومٌ مَصْدَرًا كَالشُّكُورِ وَالدُّخُولِ فَيَنْتَصِبُ عَلَى الْمَفْعُولِ لِأَجْلِهِ وَعَامِلُهُ سَخَّرَها، أَيْ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ لِاسْتِئْصَالِهِمْ وَقَطْعِ دَابِرِهِمْ. وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي صَالِحٌ لِأَنْ يُذْكَرَ مَعَ هَذِهِ الْأَيَّامِ، فَإِيثَارُ هَذَا اللَّفْظِ مِنْ تَمَامِ بَلَاغَةِ الْقرآن وَإِعْجَازِهِ))[٥]. وهذا التعدد في معنى اللفظ واحتمال النص الكريم لها من غير تكلف من مظاهر إعجاز القرآن الكريم

الوتين: ويرى الشيخُ الطاهر أن استعمال كلمة (الوتين) في قوله تعالى:﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾[الحاقة٤٤–٤٧]؛ من المبتكر اللغوي اللفظي الذي جاء به القرآن الكريم؛ لأنه تشبيه جديد غير مسبوق، فقد شبّه حال خاتمة من يتقول على الله تعالى بجزور نحر وتينها، قال: ((والْوَتِينَ: عِرْقٌ مُعَلَّقٌ بِهِ الْقَلْبُ وَيُسَمَّى النِّيَاطُ، وَهُوَ الَّذِي يَسْقِي الْجَسَدَ بِالدَّمِ وَلِذَلِكَ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْجَسَدِ، وَهُوَ إِذَا قُطِعَ مَاتَ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُقْطَعُ عِنْدَ نَحْرِ الْجَزُورِ. فَقَطْعُ الْوَتِينِ مِنْ أَحْوَالِ الْجَزُورِ وَنَحْرِهَا، فَشَبَّهَ عِقَابَ مَنْ يُفْرَضُ تَقَوُّلُهُ

---

١ ذكره الشهاب في: حاشيته =عناية القاضي ٢/ ٢٥٠، ثم قال: ((فعليك بالعض على هذا بالنواجذ فإنه من بدائع هذا الكتاب وروائعه)).

٢ ديوان زهير بن أبي سلمى:

٣ التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٨.

٤ نفسه ٢٦/ ٨٢.

٥ نفسه ٢٩/ ١١٧.

عَلَى اللَّهِ بِجَزُورٍ تُنْحَرُ فَيُقْطَعُ وَتِينُهَا. وَلَمْ أَقِفْ عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يُكَنُّونَ عَنِ الْإِهْلَاكِ بِقَطْعِ الْوَتِينِ، فَهَذَا مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن. ومِنْهُ صِفَةٌ لِلْوَتِينِ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِ (قَطَعْنَا)، أَيْ أَزَلْنَاهُ مِنْهُ. وَبَيْنَ مِنْهُ الْأُولَى ومِنْهُ الثَّانِيَةِ مُحَسِّنُ الْجِنَاسِ))[١].

يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا: يرى الشيخُ الطاهر أنَّ في هذا التعبير القرآني الذي جاء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨)﴾ [المزمل ١٧-١٨]، مبالغةً عجيبة، ويرى أنَّ هذا الاستعمال ورد أولَ مرة في هذا الموضع ولم يرد في شعر العرب قبل ذلك، قال: ((وَوَصْفُ الْيَوْمِ بِأَنَّهُ يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً وَصْفٌ لَهُ بِاعْتِبَارِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْأَحْزَانِ، لِأَنَّهُ شَاعَ أَنَّ الْهَمَّ مِمَّا يُسْرِعُ بِهِ الشَّيْبُ فَلَمَّا أُرِيدَ وَصْفُ هَمِّ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالشِّدَّةِ الْبَالِغَةِ أَقْوَاهَا أُسْنِدَ إِلَيْهِ يَشِيبُ الْوِلْدَانُ الَّذِينَ شَعْرُهُمْ فِي أَوَّلِ سَوَادِهِ. وَهَذِهِ مُبَالَغَةٌ عَجِيبَةٌ وَهِيَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن فِيمَا أَحْسَبُ، لِأَنِّي لَمْ أَرَ هَذَا الْمَعْنَى فِي كَلَامِ الْعَرَبِ))[٢]. ولمّا كان الشيخُ يرى أسبقية الاستعمال القرآني فقد دفع بنسبة الشاهد النحوي الذي يحتوي على تعبير قريب منه وَهُوَ[٣]:

إذن واللَّهِ نَرْمِيهُمْ بِحَرْبٍ ... تُشِيبُ الطِّفْلَ مِنْ قَبْلِ الْمَشِيبِ

قال: ((وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي يُذْكَرُ فِي شَوَاهِدِ النَّحْوِ،...، فَلَا ثُبُوتَ لِنِسْبَتِهِ إِلَى مَنْ كَانُوا قَبْلَ نُزُولِ القرآن وَلَا يُعْرَفُ قَائِلُهُ، وَنَسَبَهُ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ،...، وَإِسْنَادُ يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً إِلَى الْيَوْمِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ بِمَرْتَبَتَيْنِ لِأَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ زَمَنُ الْأَهْوَالِ الَّتِي تَشِيبُ لِمِثْلِهَا الْأَطْفَالُ، وَالْأَهْوَالُ سَبَبٌ لِلشَّيْبِ عُرْفًا. وَالشَّيْبُ كِنَايَةٌ عَنْ هَذَا الْهَوْلِ فَاجْتَمَعَ فِي الْآيَةِ مَجَازَانِ عَقْلِيَّانِ وَكِنَايَةٌ وَمُبَالَغَةٌ فِي قَوْلِهِ:﴿يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً﴾))[٤]. وقد وردت في تفسير محاسن التأويل إشارة تقترب من هذا التوصيف البلاغي الذي ذكره الشيخ الطاهر، إذ جاء فيه: ((يقال في اليوم الشديد: إنه ليشيب نواصي الأطفال، كلام جار مجرى المثل. وليس ذلك على حقيقته، لأن الأمة مجمعة على أن الأطفال لا تتغير حلاهم في الآخرة إلى الشيب. والأصل في هذا أن الهموم والأحزان إذا توالت على الإنسان شاب سريعا))[٥].

سلسبيل: ولفظ (سلسبيل)[٦] من الابتكار اللغوي للقرآن الكريم، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨)﴾ [الانسان١٧-١٨]، قال: ((و(سَلْسَبِيل): وَصْفٌ قِيلَ مُشْتَقٌّ مِنَ السَّلَاسَةِ وَهِيَ السُّهُولَةُ وَاللِّينُ فَيُقَالُ: مَاءٌ سَلْسَلٌ، أَيْ عَذْبٌ بَارِدٌ. قِيلَ: زِيدَتْ فِيهِ الْبَاءُ وَالْيَاءُ (أَيْ زِيدَتَا فِي أَصْلِ الْوَضْعِ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ)،...، وَعِنْدِي أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ رُكِّبَ مِنْ مَادَّتَي السَّلَاسَةِ وَالسَّبَالَةِ، يُقَالُ: سَبَلَتِ السَّمَاءُ، إِذَا أَمْطَرَتْ، فَسَبِيلُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، رُكِّبَ مِنْ كَلِمَتَي السَّلَاسَةِ وَالسَّبِيلِ لِإِرَادَةِ سُهُولَةِ شُرْبِهِ وَوَفْرَةِ جَرْيِهِ. وَهَذَا مِنَ الِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ وَلَيْسَ بِاشْتِقَاقٍ تَصْرِيفِيٍّ. فَهَذَا وَصْفٌ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ عِنْدَ مُحَقِّقِي أَهْلِ اللُّغَةِ. وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ[٧]: لَمْ أَسْمَعْ هَذِهِ اللَّفْظَةَ إِلَّا فِي القرآن، فَهُوَ فَهُوَ عِنْدَهُ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن الْجَارِيَةِ عَلَى أَسَالِيبِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ،...، وَمَعْنَى تُسَمَّى عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، أَنَّهَا تُوصَفُ بِهَذَا الْوَصْفِ حَتَّى صَارَ كَالْعَلَمِ لَهَا،...، فَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ عَلَمٌ. وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ جَعَلَ التَّسْمِيَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا وَجَعَلَ سَلْسَبِيلًا عَلَمًا عَلَى هَذِهِ الْعَيْنِ، وَهُوَ أَنْسَبُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: تُسَمَّى))[٨].

---

١ نفسه ٢٩/ ١٤٦.

٢ التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٧٥.

٣ ينظر معجم شواهد العربية.

٤ التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٧٥.

٥ محاسن التأويل ٩/ ٣٤٣.

٦ ينظر البحث في هذه الكلمة: العين ٢/٣٣١، والزاهر في معاني كلمات الناس ٢/١٩٦، والنهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٣٨٩. ٢/٣٨٩.

٧ ينظر قوله في: تهذيب اللغة ١٣/ ١٠٨، ولسان العرب ١١/ ٣٤٤، وتاج العروس ٢٩/ ٢٢١.

٨ التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٩٦.

جنات الفافا: ويرى الشيخ أن استعمال (جنات الفافا) في قوله تعالى:﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾ [النبأ١٤-١٦]، مما ابتكره القرآن الكريم؛ إذ بيَّن أن (ألفافا) اسم جمع لا واحد له من لفظه، وأنَّ وصفَ (جنات) بها مجاز عقلي لأنَّ الجنات لا تلتف حقيقة وإنما الذي يلتف شجرها، وهو يرى ان هذا الاستعمال لم تعهده العرب قبل القرآن الكريم، قال: ((وَأَلْفَافٌ: اسْمُ جَمْعٍ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ وَهُوَ مِثْلُ أَوْزَاعٍ وَأَخْيَافٍ، أَيْ كُلُّ جَنَّةٍ مُلْتَفَّةٌ، أَيْ مُلْتَفَّةُ الشَّجَرِ بَعْضِهِ بِبَعْض. فوصف الجنات بِأَلْفَافٍ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ لِأَنَّ الِالْتِفَافَ فِي أَشْجَارِهَا وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتِ الْأَشْجَارُ لَا يَلْتَفُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْغَالِبِ إِلَّا إِذَا جَمَعَتْهَا جَنَّةٌ أُسْنِدَ أَلْفَافٌ إِلَى جَنَّاتٍ بِطَرِيقِ الْوَصْفِ. وَلَعَلَّهُ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن إِذْ لَمْ أَرَ شَاهِدًا عَلَيْهِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ قَبْلَ القرآن. وَقِيلَ: أَلْفَافٌ جَمْعُ لِفٍّ بِكَسْرِ اللَّامِ بِوَزْنِ جِذْعٍ، أَيْ كُلُّ جَنَّةٍ مِنْهَا لِفٌّ بِكَسْرِ اللَّامِ وَلَمْ يَأْتُوا بِشَاهِدٍ عَلَيْهِ))[١].

ويبدو أنَّ علماء العربية مختلفون في مفرد هذه الكلمة، إذ تذكر المعاجم أنَّ بعض العلماء يرى أنَّ مفردها: لفة، وانه غير مسموع، مما دعاهم إلى القول ان مفرده لفاء التي جُمعت على لف ثم جمعت لف على ألفاف[٢]. وينقل صاحب المخصص عن الفارسي قد يكون جمع لفيف[٣]. وذكر الاخفش أن واحدها اللف[٤]. وقال الطبري في تفسيرها: ((وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا، قال: هي هي الملتفة، بعضها فوق بعض. واختلف أهل العربية في واحد الألفاف، فكان بعض نحويي البصرة يقول: واحدها: لَفٌّ. وقال بعض نحويِّي الكوفة: واحدها: لف ولفيف، قال: وإن شئت كان الألفاف جمعا واحده جمع أيضا، فتقول: جنة لفَّاء، وجنات لفّ، ثم يجمع اللَّفَّ ألفافا. وقال آخر منهم: لم نسمع شجرة لفة، ولكن واحدها لفاء، وجمعها لفّ، وجمع لفّ: ألفاف، فهو جمع الجمع. والصواب من القول في ذلك أن الألفاف جمع لفّ أو لفيف، وذلك أن أهل التأويل مجمعون على أن معناه: ملتفة))[٥].

فأين تذهبون: والابتكار في هذه العبارة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ [سورة التكوير٢٣-٢٩]، مما يمكن أنْ نصفه بالابتكار التركيبي الدلالي، لأنَّ تركيبها أدى إلى دلالة جديدة غير مستعملة في كلام العرب سابقًا، ذلك أنَّ استعمالها جاء على شكل مثل، يشبه حالهم في سلوك طرق الباطل بحال من ضل الطريق، قال الشيخ الطاهر: ((و(أَيْنَ) اسْمُ اسْتِفْهَامٍ عَنِ الْمَكَانِ. وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ عَنْ مَكَانِ ذَهَابِهِمْ، أَيْ طَرِيقِ ضَلَالِهِمْ، تَمْثِيلًا لِحَالِهِمْ فِي سُلُوكِ طُرُقِ الْبَاطِلِ بِحَالِ مَنْ ضَلَّ الطَّرِيقَ الْجَادَّةَ فَيَسْأَلُهُ السَّائِلُ مُنْكِرًا عَلَيْهِ سُلُوكَهُ، أَيِ اعْدِلْ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ فَإِنَّهُ مَضِلَّةٌ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلًا فِي التَّعْجِيزِ عَنْ طَلَبِ طَرِيقٍ يَسْلُكُونَهُ إِلَى مَقْصِدِهِمْ مِنَ الطَّعْنِ فِي القرآن. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْكُمْ طُرُقُ بُهْتَانِكُمْ إِذِ اتَّضَحَ بِالْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ بُطْلَانُ ادِّعَائِكُمْ أَنَّ القرآن كَلَامُ مَجْنُونٍ أَوْ كَلَامُ كَاهِنٍ، فَمَاذَا تَدَّعُونَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ جُمْلَةَ «أَيْنَ تَذْهَبُونَ» قَدْ أُرْسِلَتْ مَثَلًا، وَلَعَلَّهُ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن وَكُنْتُ رَأَيْتُ فِي كَلَامِ بَعْضِهِمْ: أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ، لِمَنْ كَانَ فِي خطأ وعماية))[٦]. وقال الزجاج في بيان معنى هذا التعبير: ((معناه فأيَّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينتُ لَكُمْ))[٧]. ولفت الزمخشري

---

١ نفسه ٣٠/ ٢٧.

٢ ينظر: تهذيب اللغة ١٥/ ٢٤٠.

٣ ينظر: المخصص ٣/ ١٢٢، ولسان العرب ٩/ ٣١٨.

٤ معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٦٤.

٥ جامع البيان تفسير الطبري ٢٤/ ١٥٦-١٥٧. وينظر: إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٨١، والمفردات في غريب القرآن: ٧٤٣، وتفسير وتفسير البغوي ٥/٢٠٠، والكشاف ٤/ ٦٨٧، ومفاتيح الغيب ٣١/ ١٢، والتبيان في إعراب القرآن ٢/ ١٢٦٦، ومدارك التنزيل ٣/ ٥٩٠، والبحر المحيط ٣٨٢/١٠، وبصائر ذوي التمييز ٤/ ٤٣٦.

٦ التحرير والتنوير ٣٠/ ١٦٤-١٦٥، وتفسير الطبري جامع البيان ٢٤/ ٢٦٢.

٧ معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٢٩٣، وتفسير البغوي ٥/ ٢١٨، ومدارك التنزيل ٣/ ٦٠٨، والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٤٣.

الأنظار إلى التمثيل الذي يتضمنه التعبير؛ قال: ((أين تذهب، مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل))[١].

النَّجْمُ الثَّاقِبُ: ووجه الابتكار في عبارة (النجم الثاقب) في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فِي سُورَةِ الشُّورَى [١٧]، ناتج من جدّة الدلالة الناتجة من استعمالها، ذلك أنَّ استعمال الثقب هنا استعارة للدلالة على البروز والظهور، وهذا الاستعمال لم يعهده العرب قبل القرآن الكريم، قال: ((وَالثَّقْبُ: خَرْقُ شَيْءٍ مُلْتَئِمٍ، وَهُوَ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِظُهُورِ النُّورِ فِي خِلَالِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. شَبَّهَ النَّجْمَ بِمِسْمَارٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَظُهُورَ ضَوْئِهِ بِظُهُورِ مَا يَبْدُو مِنَ الْمِسْمَارِ مِنْ خِلَالِ الْجِسْمِ الَّذِي يَثْقُبُهُ مِثْلَ لَوْحٍ أَوْ ثَوْبٍ. وَأَحْسَبُ أَنَّ اسْتِعَارَةَ الثَّقْبِ لِبُرُوزِ شُعَاعِ النَّجْمِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن وَلَمْ يَرِدْ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ قَبْلَ القرآن. وَقَدْ سَبَقَ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ [١٠]))[٢]، ثم نقل عن القرطبي ان العرب تستعمل اثقب نارك بمعنى أضئها، قال: ((وَوَقَعَ فِي «تفسير القرطبي»: وَالْعَرَبُ تَقُولُ اثْقُبْ نَارَكَ، أَيْ أَضِئْهَا، وَسَاقَ بَيْتًا شَاهِدًا عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ يَعْزُهُ إِلَى قَائِلٍ))[٣]. وهذا التفسير سبق أن ذكره بعض القدماء قبل القرطبي، فقد قال الفراء: ((والثاقب: المضيء، والعرب تَقُولُ: أثقب نارك– للموقِد، وَيُقَال: إن الثاقب: هُوَ النجم الَّذِي يُقال لَهُ: زحل))[٤]. وقال أبو عبيدة: ((﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ المضيء، أثقب نارك أضئها))[٥]. وهم يذكرون أنها بمعنى أضئها أو أشعلها أو ذكها، ويذكرون ان المراد به زحل أو الثريا[٦]. وقال ان عطية: ((واختلف المتأولون في النَّجْمُ الثَّاقِبُ، فقال الحسن بن أبي الحسن ما معناه: إنه اسم للجنس، لأنها كلها ثاقبة، أي ظاهرة الضوء، يقال ثقب النجم إذا أضاء، وثقبت النار، كذلك، وثقبت الرائحة إذا سطعت، ويقال للموقد اثقب نارك، أي أضئها، وقال ابن زيد: أراد نجما مخصوصا: وهو زحل، ووصفه بالثقوب، لأنه مبرز على الكواكب في ذلك، وقال ابن عباس: أراد الجدي، وقال بعض هؤلاء يقال: ثقب النجم، إذا ارتفع فإنما وصف زحلا بالثقوب لأنه أرفع الكواكب مكانا. وقال ابن زيد وغيره: النَّجْمُ الثَّاقِبُ: الثريا، وهو الذي يطلق عليه اسم النجم معرفا))[٧]. وقال الرازي: ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ:﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطَّارِقِ: ٣] قَالَ إِنَّهُ زحل سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَثْقُبُ بِنُورِهِ سَمْكَ سَبْعِ سموات والله أعلم))[٨]. أما البيت الذي استشهد به القرطبي، فهو:

أذاع به في النّاس حتى كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

وقد نسبه بعض القدماء إلى أبي الأسود الدؤلي[٩]. وبذلك يكون أبو الأسود تأثر بالاستعمال القرآني واحتذى به.

---

١ الكشاف ٤/ ٧١٣. وينظر: مفاتيح الغيب ٣١/ ٧١، وأنوار التنزيل ٥/ ٢٩١، والبحر المحيط ١٠/ ٤١٩، والدر المصون ٧٠٧/١٠، واللباب في علوم الكتاب ١٩١/٢٠، ومعترك الأقران ٣٣١/١، وإرشاد العقل السليم ١١٩/٩، وروح البيان ٣٥٤/١٠، وروح المعاني ٢٦٥/١٥، وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٣.

٢ التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٦٠.

٣ نفسه ٣٠/ ٢٦٠.

٤ معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٤.

٥ مجاز القرآن ٢/ ٢٩٤.

٦ ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٤، ومجاز القرآن ٢/ ٢٩٤، جامع البيان ٢٤/ ٣٥٢، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٣١١، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٢٣، والتفسير الوسيط ٤/ ٤٦٤، والنكت في القرآن الكريم: ٥٤٨، والمفردات في غريب القرآن: ١٧٣، وتفسير البغوي ٢٣٩/٥، والكشاف ٤/ ٧٣٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٤، وزاد المسير ٤/ ٤٢٨، وأنوار التنزيل ٥/ ٣٠٣، ومدارك التنزيل ٢٧/٣، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١–٢، والبحر المحيط ١٠/ ٤٥٠، واللباب في علوم الكتاب ٢٠/ ٢٦٠.

٧ المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٤–٤٦٥.

٨ مفاتيح الغيب ٢٦/ ٣٢١.

٩ في: مجاز القرآن ١/ ١٣٣، والحيوان ٥/ ٣١٨، وجامع البيان ٨/ ٥٦٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٨٤، والبحر المحيط ٣/ ٧٢٣، والدر والدر المصون ٤/ ٥١، واللباب في علوم الكتاب ٦/ ٥٢١.

تأكلون التراث: ووجه الابتكار في هذه العبارة في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ [الفجر١٧-٢٠]، على الرغم من أنها تتألف من فعل وفاعل ومفعول هو الدلالة التي تخرج إليها؛ لأنها استعارة جديدة عبَّر بها عن الانتفاع بالشيء على نحو لا يُبْقِي منه شيئًا، وهو استعمال غير معروف عند العرب، قال: ((وَالتُّرَاثُ: الْمَالُ الْمَوْرُوثُ، أَيِ الَّذِي يُخْلِفُهُ الرَّجُلُ بَعْدَ مَوْتِهِ لِوَارِثِهِ وَأَصْلُهُ: وُرَاثٌ بِوَاوٍ فِي أَوَّلِهِ بِوَزْنِ فُعَالٍ مِنْ مَادَّةِ وَرِثَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ،...، وَالْأَكْلُ: مُسْتَعَارٌ لِلِانْتِفَاعِ بِالشَّيْءِ انْتِفَاعًا لَا يُبْقِي مِنْهُ شَيْئًا. وَأَحْسبُ أَنَّ هَذِهِ الِاسْتِعَارَةَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن إِذْ لَمْ أَقِفْ عَلَى مِثْلِهَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ))[١].

فألهمها فجورها وتقواها: ومرجع الابتكار في هذا التعبير الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس ١-٨]، هو استعمال (ألهم) للدلالة على المعاني النفسية، وهو أمر لم تعرفه العرب؛ فقد بيّن الشيخ الطاهر أنَّ الإلهام هو حصول المعنى في النفس من غير تعليم أو تجربة سابقة[٢]، ومن ثمَّ فان استعماله بمعنى إيقاع الشيء في روْع الإنسان من الله سبحانه من ابتكار القرآن؛ لأنَّ هذا الأمر لم تعرفه العرب لقلَّةِ عنايتها بالمعاني النفسية بخلاف عنايتها بالمعاني الحسية التي تفرضها طبيعة حياتهم، قال: ((وَيُطْلَقُ الْإِلْهَامُ إِطْلَاقًا خَاصًّا عَلَى حُدُوثِ عِلْمٍ فِي النَّفْسِ بِدُونِ تَعْلِيمٍ وَلَا تَجْرِبَةٍ وَلَا تَفْكِيرٍ فَهُوَ عِلْمٌ يَحْصُلُ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ سَوَاءٌ مَا كَانَ مِنْهُ وِجْدَانِيًّا كَالِانْسِيَاقِ إِلَى الْمَعْلُومَاتِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْوِجْدَانِيَّةِ، وَمَا كَانَ مِنْهُ عَن دَلِيل كالتجريبيات وَالْأُمُورِ الْفِكْرِيَّةِ والنظرية. وإيثار هَذَا الْفِعْلِ هُنَا لِيَشْمَلَ جَمِيعَ عُلُومِ الْإِنْسَانِ، قَالَ الرَّاغِبُ: الْإِلْهَامُ: إِيقَاعُ الشَّيْءِ فِي الرُّوعِ وَيَخْتَصُّ ذَلِكَ بِمَا كَانَ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَجِهَةِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى اه. وَلِذَلِكَ فَهَذَا اللَّفْظُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ القرآن يَكُنْ مِمَّا أَحْيَاهُ القرآن لِأَنَّهُ اسْمٌ دَقِيقُ الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةِ وَقَلِيلٌ رَوَاجُ أَمْثَالِ ذَلِكَ فِي اللُّغَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ لِقِلَّةِ خُطُورِ مِثْلِ تِلْكَ الْمَعَانِي فِي مُخَاطَبَاتِ عَامَّةِ الْعَرَبِ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ اللَّهْمِ وَهُوَ الْبَلْعُ دَفْعَةً، يُقَالُ: لَهِمَ كَفَرِحَ، وَأَمَّا إِطْلَاقُ الْإِلْهَامِ عَلَى عِلْمٍ يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ بِدُونِ مُسْتَنَدٍ فَهُوَ إِطْلَاقٌ اصْطِلَاحِيٌّ لِلصُّوفِيَّةِ. وَالْمَعْنَى هُنَا: أَنَّ مِنْ آثَارِ تَسْوِيَةِ النَّفْسِ إِدْرَاكَ الْعُلُومِ الْأَوَّلِيَّةِ وَالْإِدْرَاكُ الضَّرُورِيُّ الْمُدَرَّجُ ابْتِدَاءً مِنَ الِانْسِيَاقِ الْجِبِلِّيِّ نَحْوَ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ))[٣].

الخاتمة والنتائج: كان الهدف الأساس من هذه الدراسة هو تكوين صورة متكاملة عن الابتكار اللغوي في الخطاب القرآنيّ كما تبدّى في فكر الشيخ الطاهر بن عاشور، وأراد البحث أيضًا أن يبيِّنَ أهم صور الابتكار اللغوي ومظاهره في القرآن الكريم كما تجلت في تفسيره (التحرير والتنوير)، وبغية الوصول إلى هذا الهدف انقسمت الدراسة على محورين، يسعى المحور الأول إلى تحديد مفهوم الابتكار اللغوي عند الشيخ الطاهر، وقد توصل البحث إلى أنَّ مفهوم الابتكار اللغوي يرتبط عند الطاهر بن عاشور بما لم يسبق استعماله قبلَ النصِّ القرآنيِّ، وهذا الفهم مستمد من المعنى اللغوي لمادة (بكر) الذي يحيل على أول الشيء، ويبدو أنَّ هذه الفكرة انبثقت في ذهن الشيخ الطاهر نتيجة بحثه عن الاختلاف والتمايز بين القرآن الكريم وكلام العرب: شعره ونثره، ومن ثمَّ، كانت هذه الفكرة تمظهرًا وتجليًا لبحثه عن إضافة جديدة في ميدان الإعجاز القرآني. ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ الابتكار من مصطلحات النقد الأدبي، وهو يحيل- في الفكر النقدي- على ما لا يمكن تقليده غالبًا، فهو نقيض التقليد، ومن ثمّ فإن النص الذي يتصف بالابتكار أو الاختراع يمتاز بالأصالة التي تنتج من توافر عنصرين هما: عمق الإحساس، واستقلال التعبير وتميزه. أما المحور الثاني من البحث فقد تتبع ما وصفه الشيخ الطاهر

---

١ التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٣٤.

٢ ورد هذا المعنى في: العين ٤/ ٥٧، وتهذيب اللغة ٦/ ١٦٩، الصحاح ٥/ ٢٠٣٧، والمفردات في غريب القرآن: ٧٤٨، وزاد المسير المسير ٤/ ٤٥١، ومفاتيح الغيب ٢١/ ٤٠٤، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٧٥، والبحر المحيط ١٠/ ٤٨٩، واللباب في علوم الكتاب ٢٠/ ٣٦١، وإرشاد العقل السليم٩/ ١٦٤، ومحاسن التأويل ٩/ ٤٨١.

٣ التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٦٩- ٣٧٠.

بالابتكار سعيا إلى الوصول إلى الهدف الثاني من البحث وهو الكشف عن مرجعيات فكرة الابتكار عنده عن طريق الموازنة بين أقواله وأقوال العلماء السابقين. وقد توصل البحث هنا إلى أنَّ المبتكرات اللغوية القرآنية تنقسم عنده على قسمين: أحدهما عام يمثل أساليب شاملة يتصف بها النص القرآني ببنيته الكلية ؛ فَتَسِمُهُ بِسِمَةِ التميز والاختلاف؛ ومن ثمّ، الإعجاز. والقسم الثاني تتبدى صوره في مجموعة من المبتكرات اللغوية المتفرقة المبثوثة في تفسيره؛ فهي ليست عامة، وإنما هي مواضع مختلفة عالجها الشيخ في أثناء تفسيره، فصرح– في أثناء تفسيره للآية التي يتناولها بالتفسير– بأن فيها مبتكرا لغويًا قرآنيًا. وقد استقصاها البحث، وقد توصل البحث إلى أن ما طرحه الشيخ الطاهر في فكرة الابتكار في اللغة القرآنية هو معيار لغوي تقويمي جديد من حيث المصطلح والمفهوم والمعالجة وآلية التوصيف، على الرغم من أننا وجدنا عند القدماء إشارات تقترب مما قدمه الطاهر من حيث المضمون؛ وإن لم تُسَمِّه بالمصطلح عينه، وهي في رأينا المتواضع تمثل المرجعيات المعرفية التي كانت تؤثر في المنظومة الفكرية للشيخ الطاهر سواء أكان ذلك على مستوى الوعي أم اللاوعي. ولعل هذه الإشارات كانت دافعا للشيخ الطاهر لكي يتبنى هذه الفكرة وهذا المصطلح ليبلور نظرية جديدة يفسر من خلالها الإعجاز اللغوي القرآني، مفيدا مما قدمه العلماء السابقون، ومقدما إياه في ثوب جديد وطرْحٍ جديد يُسَمّي الأشياء بأسمائها، لأننا نتفق والشيخ الطاهر في أنَّ ما هو معجزٌ لا بدَّ له من أن يكون مبتكرا. وقد كان بحث الشيخ الطاهر عن الابتكار – الذي يستند إلى السَّبْق والأولية– يؤدي به في كثير من الأحيان إلى البحث في تاريخية استعمال بعض الألفاظ أو التراكيب ليتمكن من وَسْمها بالابتكار، فيعالج، نتيجةً لذلك، توثيقَ بعض الأبيات الشعرية التي تتعارض– أحيانا– ورؤيته، مما يؤدي به أحيانا إلى أن يبحث في حقيقتها وحقيقة نسبتها إلى عصر ما قبل الإسلام، لينتهي بأنها من شعر العصر الإسلامي أو أنها مصنوعة وليست جاهليةَ القائلِ حقيقة. وقد اتضح من البحث أن المبتكرات اللغوية القرآنية مختلفةٌ من حيث النوع ومن حيث السبب الذي يجعل منها مبتكرة، فبعضها لفظ مبتكر وبعضها الآخر تركيب مبتكر، وفي الحالين فمسوغ الوصف بالابتكار هو الأولية، وهذه الأولية اما أن تكون أولية استعمال اللفظ بدلالة جديدة غير واردة في شعر العرب أو نثرهم، واما أن تكون أولية استعمال التركيب من حيث هو بنية جديدة في تركيبها، أو من حيث هو بنية تركيبية جديدة في دلالتها، أو بلاغتها.